قناص حرب الاستنزاف

نوّار.. عين الصقر



تقديم اللواء عبد المنعم خليل

تحرير سليمان العطار

دار الشروق



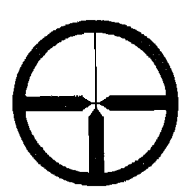
نوّار.. عين الصقر

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk, com.

نوّار.. عين الصقر

قناص حرب الاستنزاف



تقديم اللواء عبد المنعم خليل

تحرير سليمان العطار

دار الشروق





إهداء

من الجندى أحمد نوار

إلى شباب مصر



تقديم

الى الرقيب المقاتل القناص الفنان الدكتور احمد نوار بطل الجيش الثاني

زميل الحب والحرب

عشت بين سطور كتابك اسعد لحظات حياتي فقد عادت بي الذكريات الى ثلاثين عاما من الاعوام عشناها معا على جبهة قناة السويس في قطاع الجيش الثاني الميداني بعد نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧ واثناء حرب الاستنزاف الى ايقاف القتال في اغسطس ١٩٧٠ وما بعده الى ان انتهت خدمتك العسكرية المشرفة وانتهت خدمتي كقائد للجيش الثاني الميداني حتى نهاية العام الحاسم ١٩٧١

منذ يوم الحساب في ٥ يونيو ١٩٦٧ فقد تحولت النكسة الى مشاعر للسخط والغضب والكراهية والرغبة في الانتقام وكان من وقودها نخبة من المؤهلات العليا الذين حملوا امانة تحرير الارض بالقوة ولبسوا الكاكي وحملوا السلاح اما انت فكان السلاح الذي حملته يختلف عما لدى الجميع انه سلاح خاص استمدت من خواصه بالدقة والصبر والتدريب الشاق المستمر مع الترصد والمكر والخداع فتحققت معركة الانتقام وتعددت صفوف المقاتلين فاصبحت بفضل الله امير القناصين وتلقيت وسام بطل الجيش الثاني الميداني

وانى شخصيا كقائد لهذا الجيش شهدت بالفن عندك وباعمالك وروحك القتالية العالية وبصيرتك القوية وشجاعتك ولم يكن احد يعلم كل مصري وعربي مسلم ومسيحي وكل جنود العالم بعد الرقيب القناص الفنان احمد نوار ولتستمر مسئوليته الكريم الذي انار الطريق الى نصر اكتوبر العظيم وعمله الجليل الذي تحققت به الغاية ...

والى هؤلاء الرجال الشرفاء الذين قاتلوا تحت اشرف الاعلام نحو اشرف الغايات لما ذقنا طعم نصر رمضان اكتوبر الباهر

سدد الله على طريق الخير والنور خطاك ووفقك في كل المواقع

لواء اح متقاعد

عبد المنعم خليل

قائد الجيش الثاني الميداني اثناء سنوات الاستنزاف الحاسم

وقائد جبهة رمضان (اكتوبر ٧٣)

١٤ مايو ٢٠٠٠



تقديم
بقلم المحرر

هذا عمل فريد من نوعه، إنه أول سيرة ذاتية يكتبها جندى محارب على مستوى العالم العربى، فالمعتاد أن يكتب سيرته مع الحرب كبار القادة ومشاهيرهم. من هنا تأتى فرادة وتميز هذه السيرة الذاتية لحياة الفنان أحمد نوار خلال عامين من التجنيد يمتدان من عام ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٠.

وقد تم الوصول لهذا النص بصورته الأدبية كما سوف تقرءونها عبر طريق طويل بدأ بلقاءات عقدها الصحفى الممتاز محمد عبد الواحد مع الفنان أحمد نوار يستدعى ذكرياته بالأسئلة. تم تسجيل الحوار على أشرطة قام الكاتب الشاب محمد عبد الواحد بتفريغها، ووعد بتحريرها فى نص له سياق أدبى وبناء منطقى، ولكنه لم يفعل لضيق وقته، ولهذا عرض علىّ الفنان أحمد نوار القيام بذلك التحرير، فرحبت وفعلت، ولعلى وفقت فى ذلك.

أحمد نوار من خلال ذكرياته مفكر بقدر ماهو فنان، وعسكرى محترف بقدر ماهو مفكر وفنان. تربطنى بأحمد صداقة عميقة بدأت خيوطها الجميلة فى مدريد، التى وصلت إليها قبل حرب أكتوبر العظمى بيوم. وثقت متابعتنا المشتركة لتلك الحرب صداقتنا بسرعة. أعجبت بفن نوار كما أعجب به هواة الفن ونقاده فى إسبانيا، ومازال إعجابى بفنه ينمو، كما ينمو الإعجاب به على مستوى الوطن والعالم الذى تقتنى متاحفه الكبرى بعض أعماله.

وفن نوار لايسجله أو يرسمه على لوحات فحسب، ولكنه يمارسه برتوشه الرائعة وخطوطه بالغة الرهافة كأنها تولد من الطبيعة أو تنبثق خيوطا خضراء القلب من نبات يتسلق بها السماء.. أقول يمارس هذا الفن هكذا فى ممارسة كل مناحى الحياة، فها هو جندى يحول الجندية إلى فن، وهاهو صديق يحول الصداقة إلى أجمل لوحاته، وهاهو الرجل العام الذى ينثر لمساته الفنية فى كل مايؤدى.

من هنا كانت صعوبة التحرير، لكنى بذلت جهدى لترقى أدبية النص إلى مستوى فنية صاحب الذكريات، ولترقى هذه الأدبية إلى مستوى السيرة العظيمة، لأنها سيرة عظيم. لقد صنعت سياقا قصصيا يتابع متوالية الزمان وحركته التى تشكلها أحداث تلك السيرة. ولا أنسى العون غير المباشر الذى تلقيته من الكاتب الشاب محمد عبد الواحد الذى لم أعرفه إلا عبر أسئلته الذكية التى تداعت معها ذكريات نوار، فهذا الصحفى الممتاز صديق لأحمد نوار، وأعرفه فحسب اسما وصديقا لصديقى أحمد نوار، فالشكر للكاتب الشاب محمد عبد الواحد، والشكر للصديق نوار أن أتاح لى العيش معه عامين بأثر رجعى عبر ذكرياته فى أيام تجنيده العجيبة الأحداث خلال واحدة من أنبل الحروب المصرية: حرب الاستنزاف.

السيرة تتشكل من ٢٠ فصلا، وتختم بالفصل ٢١، ويتضمن شهادات كل من اللواء عبد المنعم خليل، واللواء عصام حافظ، وهما من أعظم القواد الذين أنجبهم أعرق جيش فى العالم: الجيش المصرى، ثم يليهما شهادة تلميذين متميزين لهما، وقائدين أيضا شجاعين هما العميد حامد عبد الرحمن، والعميد فكرى شعبان.

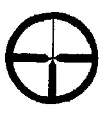
تلقيت شهادة اللواءين الجليلين شخصيا وشفويا وحررتها أقرب ماتكون لنص ما قالاه، أما شهادة العميدين فقد سجلاها على شريط تم تفريغه

وتقديمه كما هو. الشكر للقادة الأربعة اللامعين، وسوف تزين أسماؤهم الكتاب. وينبغى التنويه أن بعض تفاصيل الشهادات تضيف الجديد لروايات نوار، وتعمق الصورة الرائعة لحرب الاستنزاف.

نرجو من الله التوفيق، ونأمل أن يستمتع القارئ بهذه السطور التى ترسم أياما مصرية مجيدة، وتستحق منا الانتباه لها، والاستفادة من روحها ودروس تجربتها .

سليمان العطار

القاهرة ١/٨/٢٠٠٠





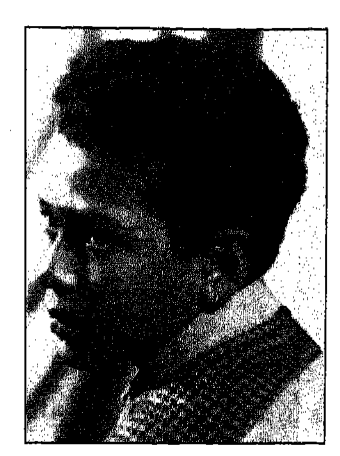
« ١ »

مولد البطل

كيف بدأ الفتى القناص حياة خاصة قادته إلى القيام بدور فريد فى حرب الاستنزاف في مجال القنص والاقتناص، وقد بلغ الغاية فى هذا المجال، كما بلغ الغاية فى مجال آخر يكاد تنقطع صلته بالحرب والقتال، وأعنى مجال الفن التشكيلى؟ البداية شديدة التواضع لاتؤدى للبروز فى الحرب أو فى الفن، لكن فتانا القناص، والفنان التشكيلى الكبير الآن، كان كما يقال مرفوع عنه الحجاب، يرى واقعه المتواضع ثقبا فى بوابة العالم، يدفعه الفضول أن يضع عينه على الثقب فيرى صغائر الأمور أو معتادها، وكأنه الحريق الكبير قد أشعله مستصغر الشرر.

لقد ولد فى قرية صغيرة (٤٠ أسرة) اسمها قرية «يوسف بك شريف»، تتبع عمودية «الشين» مركز قطور غربية.. ومولده وافق نهاية الحرب العالمية الثانية.

واختار فتانا نوار طريق التعليم، بينما اختار بعض إخوته طريق الفلاحة لتنقسم الأسرة بين المتعلمين والمزارعين، وليلتحم الفتى بحياة الفلاحين والزراعة وهو يواصل تعليمه، كجزء من انتمائه لأسرته، وكعنصر ضرورى لتعميق انتمائه لقريته الصغيرة، لندرك أن الانتماء للموطن الصغير هو مفتاح الانتماء للوطن الكبير ثم الإنسانية جمعاء.




أحمد نوار أثناء طفولته عام ١٩٥٤م

وهكذا كان يشعر بسعادة الفلاحين فى مواسم انشراحهم التى تتوافق مع مواعيد الزراعة والحصاد، ولاسيما موسم جنى القطن، الذى كان كرنفالاً، يجمع القرية نساء ورجالا وكبارا وأطفالا. إن المشاركة فى تلك المواسم السعيدة هى شطر من المشاركة اليومية لحياة قريته ولاسيما بعد سن العاشرة فى أوائل الخمسينيات، وهى حياة كما عرفت السعادة كانت تعرف التعاسة والفزع وتستثير الخيال. وقد امتُحِنَتْ قريته بمجرم خطير اسمه «السيد رجب» ولقبه الخُطّ، ذلك الاسم الذى حمله سفاح خطير، ثم صار رتبة يرتقى إليها عتاة المجرمين من القتلة المحترفين، الذين انتشروا فى أنحاء ريف مصر فى الخمسينيات، وكأنهم يقابلون فتوات نجيب محفوظ فى المدينة.

استثار الخُطّ خيال فتانا، ولم ينظر إليه نظرة ضيقة تضعه فى حجمه، وإنما نظر إلى كل عناصر الواقع المحيط. لقد ربط مسدس والده وأسلحة أسرته وكل أسرة فى القرية بوجود الخُطّ وعصابته. كما ربط الثأر الذى

يسير فى دائرة مفرغة بين الأسر والقرى بالخُطّ وبالتسليح، وأكثر من ذلك ربط كل هذا بعادة كانت تعرفها القرية المصرية الخالية من الكهرباء والمظلمة ليلا ظلاما يتحول إلى حصار تقيمه أشباح الأشجار والمزروعات، تلك العادة هى منع رب كل أسرة أفراد أسرته من الخروج ليلاً، وإجبار الجميع على العودة مبكراً إلى البيت. إنها حالة تحديد إقامة ليلى. ماذا يعني كل ذلك عند الفتى؟ إنها حالة الحرب التى سمع ويسمع عنها تسود قريتهم الصغيرة. وأصبح الخُطّ ورجال عصابته عنده مجرمى حرب، ولابد من مقاومتهم وردعهم.

شكَّل الفتى نوار فريقا للكشافة بمدرسته، واختير قائدا له. إن الكشافة تعلِّم الإنسان تحديد غايته فى الحياة، فكل تحرك للكشافة فعل يحقق غاية محددة. إنها عالم اكتشاف الغايات وتحقيقها. وقد تمكن الفتى الكاره لحالة



أحمد نوار (قائد الكشافة) بمدرسة الشين الابتدائية، مركز قطور محافظة الغربية

الحرب والمستاء من تماديها من جعل المشاركة فى الحرب إحدى غايات الكشافة، وإحدى غاياته هو شخصيا. لقد توجه فريق كشافته إلى الشرطة وعرض عليها المساعدة، وحثها على سرعة أداء واجبها بالقبض على الخُطّ القاتل المحترف عند الجميع، ومجرم الحرب عند الفتى، أيضا توجه الفتى إلى أبيه بمحضر من العائلة طالبا بندقية لقتل الخُطّ. فزع أبوه وفزعت الأسرة. أصمتوه. قالوا له لا تنطق بمثل هذا الكلام قط، وطلبوا من كل من سمع ألا يفتح فمه بكلمة، لأن الخُطّ لايفرق بين صغير وكبير، ولو وصله هذا الكلام سوف يؤذى الفتى وأباه بل وكل الأسرة، لكن الأب قدّر فى ابنه هذه الشجاعة، واشترى له بندقية رش صغيرة، استخدمها صبينا الهمام فى صيد الطيور فى حديقة منزله، ومن الغيطان.

ويمر الفتى فى أحد الأيام على سوق الأربعاء، ذلك السوق الأسبوعى الذى يقام قرب القرية، ليرى جموع الناس فى السوق يهللون ويكبرون فى فرح وحبور. وينمو الفضول فى الصبى الفتى ويسأل عن أسباب تلك الفرحة، فيحكون له عن معركة بين أفراد أسرة، هم أصهار أسرته، وبين الخُطّ، الذى أطلق النار على أحد هؤلاء الأصهار، وهو فى حنطوره، وأصابه إصابة ليست بالخطيرة، لكن صحبة هذا الصهر الذى أصيب انبرت تطلق النار على الخُطّ ورجاله الثلاثة، وأردتهم قتلى. لقد انتهت حالة الحرب فى القرية الصغيرة، وعم السلام بتباشير الفرحة والوئام.

لكن الصبى الذى عاش واقع قريته فى جوهره مع الخُطّ كان قد وعى بالحرب وعرف أبعادها، ورأى فى أصهاره أبطالا. وشاركه أهل القرية فى ذلك. وقد استمرت الأفراح والليالى الملاح أياما طويلة، بسبب كشف غمة القرية وكربها ممن شن الحرب على أهلها وفرض حالة الطوارئ وتحديد الإقامة على سكانها. وقد نقل فتانا الكشاف حالة الفرح إلى مدرسته قصفا ورقصا وانشراحا شارك فيه كل الصبيان.

وأصبح الاهتمام بقسوة الحرب وضرورتها أحيانا للدفاع عن النفس

مراحا لتأملات الفتى وخيالاته حتى إن أحد أبناء القرية واسمه محمد عباسى كان قد شارك فى حرب بورسعيد عام (٥٦). صار محمد عباسى بطلا أكبر من أبطال مصرع الخُطّ، لأنه حارب أعداء أجانب للوطن الكبير. كان الأطفال رفاق نوار يتجمعون بقيادته، ويتسللون متسلقين سطح بيت محمد عباسى كل ليلة يتاح لهم ذلك لسماع رواياته عن مشاركته فى حرب بورسعيد، وبخيال الأطفال القادر على سماع الحدوتة مائة مرة، كان كلما انفض محمد عباسى من حكاياته طلبوا منه إعادتها من الأول من جديد.

لم ينس صاحبنا قط حواديت محمد عباسى، ومازال متأثرا بها حتى كتابة هذه السطور، لأنه اتخذ من محمد عباسى النموذج والبطل، وصدق كل حكاياته، وكلما استعادها الآن يتضح له صدقها وخلوها من المبالغة أو الإسراف، لكن هل هناك شىء أكثر مبالغة من واقع الحرب نفسه!

وينتقل الفتى نقلة كبيرة، وتبدأ فى حياته مرحلة جديدة، ويغادر القرية إلى المدينة الكبيرة، عندما دخل المدرسة الثانوية الفنية فى طنطا. لاتعرف المدرسة الثانوية الفنية ومثلها مدارس طنطا الكشافة، فانقطعت علاقة الفتى بالكشافة مؤقتا لتبدأ علاقته بالرياضة، ولاسيما كل رياضة تعين على تحديد غايتها مثل كرة القدم، وهكذا تَمُتُّ بصلة إلى الكشافة، بل وإلى الحرب نفسها، وكأن الفتى بحس مرهف يدرك مبكرا معنى الاستراتيجية التى نبعت أصلا ككلمة فى اللغة من ممارسة الحروب، فالاستراتيجية غاية قصوى تدفع إلى حزمة من الأفعال والإجراءات لتحقيق هذه الغاية، ومن هنا تتعلق أبصاره بسباق دولى للدراجات كانت غايته القصوى طنطا، وكانت ألمانيا تتقدم المتسابقين. طلب الفتى القناص المعجب بهذا السباق دراجة سباق من والده، وكاد يشترك فى فريق مصر الدولى للدراجات حينما تقدم للتجارب والاختبارات، التى تفتح الباب نحو عضوية الفريق، لولا تفرغه فيما بعد للفن، وانصرافه عن احتراف الرياضة، كما انصرف من قبل مجبرا عن احتراف العمل الكشفى.

لم تتوقف علاقته بقريته، ولم ينفصل عن أسرته قط، رغم إغراءات المدينة وضجيجها، وظلت عادات القرية وطبيعتها الخلابة تملأ نفسه ووجدانه حتى بعد أن ترك المدينة الكبيرة إلى المدينة الكبرى، وذلك عندما دخل كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، لتتويج الجهد الذى بدأه حين اختار فى طنطا الثانوى الفنى كى يدرس فن الجرافيك. وبدأ ينشغل بالرسم فى الكلية، ذلك الرسم الإجبارى مثل رسم موديل أو الحفر الصامت. وهكذا ترك هواياته التى بدأت بالكشافة ثم بالرياضة، فقد لعب فى طنطا كرة القدم ومارس رياضة الدراجات، لكنه لم يترك أسلوبه فى اختيار هواياته



أحمد نوار طالب الثانوى، متسابق ضمن فريق النادى الأوليمبى بالمنصورة لسباق الدراجات للمسافات الطويلة أعوام ١٩٥٩م، ١٩٦٠، ١٩٦١م

من بين تلك الهوايات التى تتحدد فيها الأهداف. كذلك لم ينس قصة الحرب ولم يبتعد عن الانشغال بها، ولاسيما جوانبها المأساوية. فقد بدأ يقرأ عن حرب فيتنام، وانشغل باله بمأساة اللاجئين فى فلسطين وتشردهم فى الآفاق، ولم يغب عن ذهنه الاهتمام بقضايا الوطن وصراعه مع إسرائيل، ومن قبل مع الإنجليز، فقد رسم لوحة عن واقعة دنشواى بعد قراءته عن تلك المأساة. لقد اتسع مفهوم الحرب عنده منذ تشخيص صراع قريته مع الخُطّ السيد رجب على أنه حرب، ولهذا فى تلقائية بدأ ينشغل بالتفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا، ويرسم لوحات عنها تنم عن هذا الانشغال، وبنفس الحس الإنسانى المتسع رسم لوحات عن حرب فيتنام تماما مثلما رسم لوحات عن حرب ٥٦ فى مصر. لقد ارتبط مصيره بالفن، كما ارتبط مصير الفن عنده بالحرب بشكل مبكر، فنحن الآن فى أوائل الستينيات، حيث بدأت حياة الفتى الشاب الجامعية، وتطورت معها دراسته للفن وانشغاله بالحرب فى آن.

وفى عامه الثانى بالكلية (١٩٦٢) عاوده الحنين إلى الكشافة فمارس طقوسها الروحية دون الاشتراك فى فريق رسمى للكشافة، حيث شكل مع مجموعة من أصدقائه فريقا لاكتشاف بر مصر من حدود ليبيا إلى دير سانت كاترين وحدودنا مع إسرائيل (رفح/غزة/شرم الشيخ) ومن سواحل البحر المتوسط حتى أسوان. لقد سار هؤلاء الشبان على أقدامهم ٧٠٠٠ كيلو متر. لقد كانوا فى بعض مراحل تلك المسيرة يركبون سيارات بعض العابرين إن ظهر عابر سبيل بسيارة عن طريق أسلوب الأوتوستوب. وقد كان آنذاك يقدم المجلس الأعلى للشباب والرياضة تصريحا بعمل رحلات على مستوى البلاد العربية وبقية العالم لمن قطع سيرا ٤٠٠٠ كيلو متر فى اكتشاف آفاق مصر.

وبالفعل حصلنا على التصريح عام ١٩٦٦. كنا ثلاثة: أنا ومحسن وستالين. وقمنا بالمحاولة لكن كيف؟

هذا موضوع الفصل التالى، الذى سوف يبدأ فيه الفتى الشاب الحديث إلينا بضمير المتكلم، كما بدأ يفعل الآن فى ختام هذا الفصل.



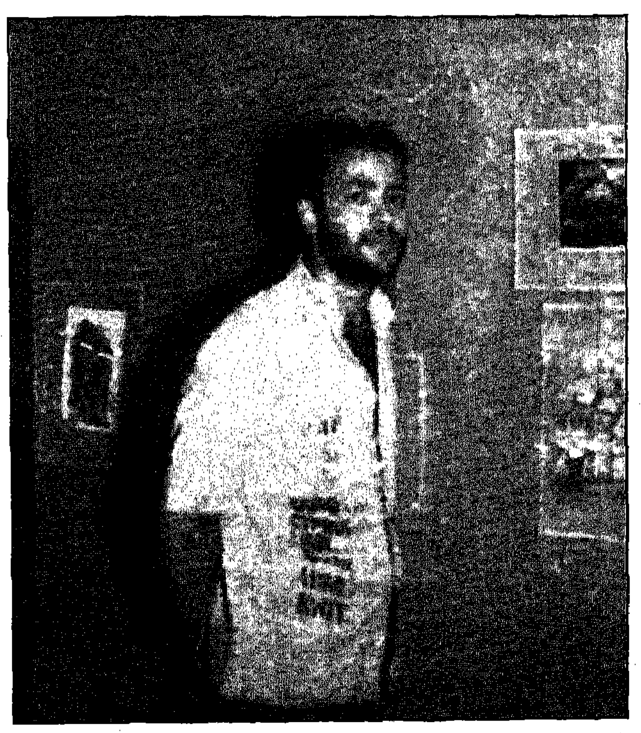
أحمد نوار الطالب الرحالة عام ١٩٦٦م. والصورة خلال رحلة سيرًا على الأقدام للتعرف على المجتمعات العربية والأجنبية بدأت فى مصر عام ١٩٦٤م برحلة طولها سبعة آلاف كيلومتر، واستمرت حتى عام ١٩٦٦ إلى قبرص ـ لبنان ـ سوريا ـ العراق ـ الكويت ـ الأردن ـ فلسطين (القدس الشرقية).

« ٢ »

القـــدس

توجه ثلاثتنا إلى بورسعيد بحثا عن ظهر مركب تحملنا إلى قبرص أو لبنان نظير العمل عليها فى التنظيف أو المطبخ أو أى عمل. لم ننجح. تركنا بورسعيد إلى الإسكندرية، حاملين متاعنا فوق ظهورنا. وحُمْنا كالفراشات حول شركات الملاحة. وعلى ما أذكر وجدنا بين هذه الشركات شركة عربية. التقينا رئيس مجلس إدارتها، وكان - لحسن حظنا - كشافا قديما. سعد بنا فى ترحيب غير عادى، واتصل بصديق له رئيس لشركة ملاحة يونانية، وطلب ثلاثة تذاكر مجانية لنا ذهاب وإياب قبرص بيروت الإسكندرية وبالعكس. فرحنا. أخذنا التذاكر وتوجهنا إلى قبرص ثم إلى بيروت. قمنا بجولة فى لبنان نستنشق جمال الطبيعة ذات الجبال الخضراء.

أقمنا لنا معسكرا صغيرا فى شارع كورنيش المزرعة، وهو من أهم شوارع بيروت. كان المعسكر عبارة عن خيمة صغيرة مرسوم عليها علم مصر وخريطة للعالم تحدد عليها خط سيرنا. مكثنا أسبوعا. ثم توجهنا إلى دمشق واللاذقية وحلب ثم إلى (أبو كمال) على حدود العراق. اخترقنا الحدود إلى العراق ومنها إلى الكويت. عدنا بعدها فى خط سير عكسى إلى دمشق. وفى دمشق مرض محسن وقرر العودة إلى مصر، بينما قرر ستالين البقاء فى دمشق وعدم مواصلة الرحلة إلى عمان والقدس. وهكذا تفرق شملنا وتجمع عندى الإصرار باستكمال خط سيرنا الأصلى. قطعت المسافة



أحمد نوار الرحالة عام ١٩٦٦م حيث تظهر من خلفه لوحاته التى رسمها أثناء رحلة سيراً على الأقدام. والمعرض بقاعة كولمبينكيان ببغداد وافتتحه رئيس مصلحة المعارض.

وحدى من دمشق إلى عمان فى أربعة أيام بلياليهن فى مشقة ليس بعدها مشقة، حيث كنت أقطع هذا الطريق بمساعدة المسافرين عبره. عثرت فى عمّان على لوكاندة بالغة مظاهر الفقر والتواضع مثل لوكاندات شارع محمد على فى القاهرة.. طلبت من صاحبها استضافتى لعدم وجود نقود معى. وكانت مصيدة حيث لم يمض على دخولى اللوكاندة أكثر من خمس دقائق حتى ظهر رجال المخابرات الأردنية، وتعرضت لاستجواب طويل وقاس.

سألونى عن سبب وجودى فى الأردن، وكان سؤالهم الملح: لماذا أرسلك عبدالناصر إلينا؟ ماذا يريد منا؟ كما يقولون : لكن الله سلم لأنهم فيما يبدو قد أدركوا خطأهم.. إنما هي حرب الأنظمة العربية آنذاك. قضيت ليلة طويلة فى تلك اللوكاندة.

فى اليوم التالى حملت متاعى إلى القدس. حملتنى سيارة نقل بعضا من الطريق، وسرت على قدميَّ بعضه الآخر. كانت رحلة شاقة. أحسست إحساساً غريبا: إننى تارة فى أرض عربية وتارة أخرى وسط مجتمع إسرائيلى. إن القدس مشطورة شطرين نصفها عربى والنصف الآخر إسرائيلى. تدفق دم غاضب فى عروقى. ملأتنى أحاسيس وطنية عجيبة، ولاسيما وأنا أسير فى شارع ممتد، وعند نقطة فيه استوقفنى صوت يمنعنى من مواصلة السير. سألت صاحب الصوت عن سبب دعوته لى بالرجوع، وعدم رؤية بقية الشارع. أجابنى بأن إسرائيل أغلقت الشارع عند هذه النقطة. اعترانى شعور بالخطر والرغبة فى المخاطرة. تذكرت اللاجئين الفلسطينيين ومأساتهم. كل هذا لم يمنعنى من البقاء ثلاثة أيام أرسم القدس بعمارتها القديمة ورائحة تاريخها العريق، الذى تفوح منه روائح الصراع الحديث، وتلك المشكلات التى سمعت عنها فى حينه بين الأردن وإسرائيل. مازلت أرسم القدس لكن الذى لم أرسمه بَعْدُ القدس محررة ونقية من الأسر وانتهاك مقدساتها.

وهنا أتذكر واقعة طريفة تكشف عن جمال هذا النوع من الرحلات التى تتراوح بين السير على الأقدام والأوتوستوب، مما يساعد على اكتشاف جوهر المكان والتعرف على حضارته خلال لقاء رفقاء السفر والافتراق عنهم. لقد قابلنى مصرى فى أحد شوارع القدس. دعانى على شاى. وتركنى قليلا لإحضار الشاى من مكان قريب. وفى طريقه التقى بشخص يشبهنى، أو على الأقل هكذا رآه المصرى المضيف، حيث كان يرتدى نفس ملابسى

تقريبا. سألته: هل يعرفنى؟ تدفقت الفرحة من شبيهى. إنه ستالين غادر دمشق فى اليوم التالى إلى القدس. وكان لقاؤنا من جديد على غير انتظار مفاجأة صغيرة، لكنها بديعة الجمال عند طُرّاق الطريق.

لقد كانت تجربة زيارتى للقدس حاسمة فى حياتى. لقد ظل المصريون (وأنا منهم) يحاربون إسرائيل دون أن يروها أو يروا إسرائيليا واحدا. فقط إسرائيل تسرق منهم حياة أبنائهم من الجنود والضباط. الحرب دائما فى صحراء سيناء الشاسعة أو فى فلسطين. كان المشهد بائسا وغير واقعى، وكأن ضباط وجنود مصر فى سيناء هم ضباطها وجنودها الذين أرسلهم الخديو إسماعيل للحرب فى أمريكا والمكسيك. تجربة القدس وضعتنى وجها لوجه مع إسرائيل والإسرائيليين، وولّدت داخلى الرغبة فى قتال الإسرائيليين وقتلهم للثأر مما فعلوه بنا، نحن العرب فى كل مكان، بل وما رأيته من خطر شديد يهدد مقدسات المسيحيين والمسلمين. لقد رأيت الإسرائيليين أعداء لى وللإنسانية. وستترك هذه الزيارة أثرها فى نفسى وحياتى أمداً لا أعرف مداه. وسوف يظهر ذلك فى لوحاتى التى يتصدر مركزها إنسان فى حصار بالغ القسوة. إنه حصار العربى ومقدسات الإنسان كما رأيته على يد الإسرائيليين فى القدس. لا أتخيل ماذا يمكن أن يعترينى الآن من أحاسيس لو رأيت القدس وهى تغتصب يوميا على يد غلاة التطرف من القتلة المحترفين من بنى إسرائيل. لعل تخيلى لتلك الصورة يقف وراء آخر معرض لى قبل نشر هذه الذكريات، والذى حمل اسم «من وجوه الفيوم إلى جبل أبى غنيم، جسد مصرى وروح عربية».

انتهت رحلتى عبر العالم العربى المشرقى عند حدودنا القدسية مع العدو. عدت إلى مصر وإلى كليتى؛ وها أنا أستعد للتخرج. فى تلك اللحظة الحاسمة من عمرى تقع لحظة فظيعة الحسم من عمر الوطن. ماهى تلك اللحظة الفظيعة؟ ذلك موضوع الفصل القادم.

« ٣ »

٥ يونيو ١٩٦٧

قمنا برحلتنا التى صارت القدس غايتها عام ١٩٦٦، وعدنا لنبدأ العام الدراسى ٦٦/٦٧. إنه البكالوريوس. إننى على أعتاب التخرج، وبدء الحياة العملية. ويمر العام الدراسى مليئا بالعمل والمذاكرة والرسم، وكان علىّ رسم لوحة مشروع التخرج. وحددت موضوع اللوحة. لابد أن يكون عملا كبيرا يهز الدنيا التى لا تهتز. لقد قررت أن أطرق موضوعا عالميا. إنه يوم الحساب. وتحددت مساحة هذه اللوحة التى كان ينبغى أن ترسم على سقف قصر أو معبد ٣٠ متراً مربعا. لرسم هذا العمل الضخم لابد من تقسيم المساحة إلى أقسام. وتقدم العمل فى هذه اللوحة بشكل مذهل. فى ٥ يونيو ١٩٦٧ كادت تكتمل اللوحة، ولم يبق لى من العمل إلا القليل، الذى قد يستغرق شهرا على الأكثر.

ما أعجب ضربات الحظ العاثر وتوافق الأقدار مع بعضها! لقد حل بمصر في هذا اليوم نفس هول يوم الحساب. إنه الحساب الدنيوى ردا على العبث بالأوطان ومصائرها. إنه هول انكسارة يونيو. لقد أطلقوا عليه اسما غريبا: النكسة! وهو اسم ملىء بالادعاء، كأن مصر كانت مريضة وشفيت من مرضها، لكن قبل تمام الشفاء أصابتها النكسة. لابأس فلم نتعود أن نسمى الحقائق بأسمائها. لقد كان تعبير النكسة فى ذلك اليوم النكير

المسود الأفق هو آخر اصطلاح ضمن سلسلة من المصطلحات المزينة التى ملأت حياة المصريين بالوهم، وزينت أيامهم بالأكاذيب. المصريون غاضبون حزانى يمارسون كل طقوس الأم الثكلى التى مارستها إيزيس من قبل. إنهم يبكون، يصرخون، يغطون أجسامهم بالطين، يتمرغون فى التراب. إنه الغيظ. لقد أُجْبِر هذا الشعب على أن يتحمل عار الهزيمة الساحقة دون أن يستحقها، كما أُجْبِر جيشه على خوض كوميديا سوداء بأن يخوض حربا دون أن يخوضها. إنه الرعب. إنها التراجيديا الجماعية. لقد كانت شعائر الحزن جماعية. وباء الحزن يجتاح الجميع. ماذا أحكى وماذا أقول؟ إن الكلمات تسقط مع الأسنان من الفم قبل أن تعبر عن هذا السقوط الكبير الذى أتاح لإسرائيل أن تجتاح الأرض العربية مثل إعصار يعبث فى سخرية بجنودنا، وهم لاحول لهم ولاقوة.

هذه الهزيمة الساحقة السريعة المفاجئة بددت كل أحلام أو قل أوهام أمة. لقد ظهر الإسرائيليون على ضفاف القناة الشرقية آمنين على أنفسهم، يستحمون فى مائها، وكأنهم قد جاءوا لقضاء صيف ممتع، ولكنهم بشكل أو بآخر قد أخطئوا الخطأ القاتل. المصريون لأول مرة يشاهدون عدوهم، ويواجهونه فاصلا بينه وبينهم خط نار حقيقى يغطى أمواه القناة. أما أنا فكان وجود الجيش الإسرائيلى على ضفاف القناة الشرقية قد حفر فى نفسى بعدا نفسيا قاتلا لايحتمل.

لقد انصرف زملائى وكل طلاب الجامعة عن مواصلة دراستهم وامتحاناتهم، وكانوا أكثر أبناء مصر خسارة، لانهيار كل ما بداخلهم من مُثل وآمال. لقد خذلهم قادة الوطن بأكاذيبهم. الطلاب دائما مثاليون ورومانسيون والمسائل لها أبعاد مُكَبَّرة عندهم، وهى أبعاد فى داخل نفوسهم. فما بالنا بتكبير حدث كبير وكبير جدا مثل انكسارة أمتهم فى يونيو ٦٧. لقد

انخرطتُ وانخرط زملائى فى التدريب على المقاومة الشعبية، برغم أننا لسنا أفرادا فى القوات المسلحة. لقد اعترانا الشعور بأن المقاومة الشعبية هى بديل مؤقت للجيش الذى ظن الجميع أنه قد تفرق وتبدد شمله. هل حقا مصر بلا جيش؟ لا أدرى لقد كان شعورا عاما عمَّق فى الأنفس الدور الخطير للمقاومة الشعبية، وخلق لدينا شعورا بالغ الجدية والوقار بالمسئولية عن الوطن. لقد خلق لى هذا التدريب نوعا من الاتزان النفسى واستعادة التوازن المفقود. إن وجود هذه الأعداد الكبيرة من الجامعيين تطوعيا ضمن القاعدة العريضة للجيش المصرى المبدد الذى يعاد تشكيله بسرعة أعطانى بعض الاطمئنان، ووضعنى فى حالة من الترقب والانتظار لساعة الثأر لكرامة الوطن، واستعادة الأرض.

أما ذلك الحزن القاتل والأسى فلم يغادرنى، ولم يغادر المصريين برغم استعادة التوازن. إن الآلام تصهر وتبحث عن تعبير. وبالفعل رسمت لوحة تعبّر عما يجيش بنفسى فى تلك الأيام. لقد كانت مساحة اللوحة ٦٠×٦٠سم. إنها مساحة ملأتها عيون ووجوه متعددة الملامح والأحجام. وقد تحولت نظرات العيون إلى فوهات بنادق ومدافع تنبعث من محاجرها وكأنها دموع متحجرة لاتغادر العيون ولا تنفصل عنها. لقد كانت تلك الأسلحة داخلة فى تكوين العيون، وقد تعددت اتجاهات فوهاتها. إنها مصر تترقب لحظة الثأر والانتصار. لقد كانت أسلحة منصهرة مع العيون لايستطيع أحد أن يحدد من أين تبدأ ملامحها أو إلى أين تتجه نهاياتها. لقد رأيت فى هذه الصورة إعادة بناء الإنسان المصرى واسترجاع ثقته بنفسه وقدراته، للنهوض مرة أخرى لتدارك الهزيمة، وتوابعها، التى توالت بعد ذلك مع نتائجها سلبا وإيجاباً.

ستلعب هذه اللوحة دورا مركزيا فى حياتى. لقد دعيت إلى الاشتراك

فى معرض دولى بإسبانيا، (بينالى إيبيثا الدولى)، وكان ذلك فى بداية عام ١٩٦٨. أرسلت هذه اللوحة للاشتراك بها فى مسابقة المعرض المذكور، تم ذلك عبر جمعية خريجى كلية الفنون الجميلة. والمفاجأة التى ستتبعها مفاجآت أخرى أننى تلقيت بعد ذلك بأقل من شهرين رسالة بفوز تلك اللوحة بالجائزة الأولى العالمية التى يقدمها ذلك المعرض الدولى الدورى. الجائزة كانت عبارة عن مبلغ مالى وميدالية تذكارية، بجانب منحة للدراسة لمدة أربع سنوات بإسبانيا.

وبدأت الاستعداد للسفر لتسلم الجائزة من وزير الثقافة الإسبانى، والانتفاع بمنحة الدراسة المشار إليها.

انتهت الإجراءات بتجديد جواز سفرى، وعند أخذى تأشيرة الخروج (!!!) طلبوا منى إحضار موافقة على السفر من القوات المسلحة، وقد كنت أنهيت مشروع التخرج (لوحة يوم الحساب)، ونجحت وتخرجت وعينت معيدا فى كليتى، وقد وافق ذلك انتهاء تأجيل تجنيدى، وضرورة اتخاذ إجراءات مد التجنيد، وهنا تواجهنى المفاجأة الثانية. ياترى ماذا سوف تكون تلك المفاجأة الجديدة التى هى من توابع لوحة العيون المسلحة الفائزة بجائزة دولية تدور لها رأس فنان شاب لم يكد يبدأ حياته الفنية؟



« ٤ »

المفاجــأة !

مـاتعلمناه من دروس انكسـارة يونيـو ١٩٦٧ كـان القليل. هـذا القليل حقق انتصارين. أولهما: فى حـرب الاسـتنزاف. والثانى: فى حـرب ٦ أكتوبر. لكن مـالم نتـعلمـه هو الكثـيـر الذى رأيتـه (ومـازلـت أراه فـى مـواقـع مـتـعـددة من الوطن) عندما ذهبت إلى منطقة تجنيد الإسكندرية لتجديد التأجيل أو آخذ موافقة القوات المسلحة على سفرى لاستلام الجائزة العالمية، التى هى جائزة لمصر قبل أن تكون جائزة لى. لقد حكيت لهم قصتى. قالوا لى إن التأجيل لأى سبب من الأسباب قد ألغى منذ ٤ أيام فقط، وقالوا لى ماهو أغرب: إننى جندى فى القـوات المسلحـة منذ ذلك التـاريخ. أبلغـتـهم أن أحـدا لم يخطرنـى بذلك بأية وسـيلة من وسـائل الإخطار، بدليل قـدومى بنفـسى للحصول على موافقتهم على سفرى. أخبرنى الضابط المسئول أننى قد فعلت خيرا لوصولى فى الوقت المناسب قبل أن أقع تحت طائلة العقاب!

لقد كانت المفاجـأة صدمة عصبية ونفسية ملأت جوانب نفسى بالألم العـمـيق، ولم يكن ذلك بـالطبع لأننى سـوف ألتـحق فـورا بالجـيش، وإنما لأسلوب إدارة الأمـور من ناحيـة، وللتحـول العـجيب فـى نفسى من فـرحة الحصول لمصر على جائزة عالمية وتمثيلها فى الاحتفال باستلامها إلى حزن منعى من السفر وغيبة مصر عن هذا الاحتفال دون مبرر واضح. لقد كان

من الممكن أن يتركونى بضعة أيام للسفر والعودة، ولاسيما أنه لم تكن هناك أية مهام قتالية عاجلة فى انتظارى، بل لم يحدث فى الأيام الأولى إلا مايعكر الصفو الذى تم تعكيره أصلا بمنعى من السفر، فضلا عن احتجازى الفورى دون إخطار أسرتى أو أحد بما حدث، إذ فى خلال ساعة ونصف الساعة كنت أرتدى الزى العسكرى، وأحمل مِخْلَة بها متاعى ومعداتى، وأقوم بالمهام الأولى فى الجيش المصرى.

لقد تم ترحيلنا فى اليوم التالى إلى معسكرات تدريب تم توزيعنا عليها، وكان نصيبى الذهاب إلى معسكر فى المعادى. كنت الوحيد بين رفقائى الذى تم تجنيده بالطريقة التى حكيتها، وبذلت جهدا كى يجدوا وسيلة لإبلاغ أهلى بتجنيدى، ولكنى تلقيت الرد الساذج البائس: إن الأمر لا أهمية له لأننا فى حالة حرب. سألتهم هل حالة الحرب تلغى أهمية ودور الأسرة المصرية؟ لم أجد غير الإعراض وإهمال شأنى.

ومع ذلك فى آخر أسبوع التدريب الأول فى المعادى بعد قيامى بشرح حالتى للضابط قائدى قام مشكورا بالتعاطف معى بأن أبلغ أهلى بالتليفون، ثم منحنى بصفة استثنائية إجازة خميس وجمعة، مع العلم أن الشهر ونصف المخصص للتدريب تُحَرَّم فيه الإجازات.

لقد بدأت أيام التدريب فورا فى المعادى، وكانت تسير فى اتجاهين: الاتجاه الأول: هو التدريب العسكرى، والاتجاه الثانى: هو التوعية المعنوية والفكرية. لقد قدموا لنا سلسلة من المحاضرات عن فلسطين وتاريخها، وعن طبيعة الحرب والاستراتيجية، وعن العدو الإسرائيلى وأساليبه واستراتيجياته، وعن حرب ٦٧ ومايلحق بها من مهام على الجيش المصرى تحقيقها، أهمها بالطبع تحرير أرضنا المحتلة. لقد كانت محاضرات جادة ومفيدة للغاية، ونالت إعجابى الشديد.

المهم انتهت أيام التدريب بعد شهر ونصف الشهر، وتم تسليم كل مجند متدرب تقريرا عن تدريبه والسلاح الذى سوف يتم إلحاقه به. لقد تم تصنيفى بين الرماة الممتازين، وهكذا تم إلحاقى بسلاح خطير، أثار الخيال عندى إلى أبعد الحدود. إنه سلاح القناصة.

تم ترحيلنا إلى الهايكستيب فى معسكرات للتدريب هناك على القنص، وهكذا من منطقة تجنيد إسكندرية إلى الهايكستيب مرورا بالمعادى. وبدأ التعامل معنا بجدية واضحة، وقدر كبير من الإنسانية والاحترام فى حدود الممكن. لقد صرنا جنودا بالفعل قادرين على القتال فى إبداع وإخلاص.

كان ذلك بداية تدريبى مع زملائى من القناصة فى الهايكستيب، وكان فتحا نفسيا لى أخرجنى من حالتى النفسية السيئة، التى ترتبت على ظروف تجنيدى غير المعقولة والمفاجئة.

لقد قضيت أيام تدريب المعادى أحاول التخلص من حالتى النفسية المذكورة، ولاسيما عندما يعترينى الفكر فى الخدمة الليلية، حيث تطفو روح الكشاف، وتملأ عينىّ باليقظة والحماس والجدية، بل وتحديد أهداف لكل ماكنت قد أرى أنه لاهدف له واضحا، وقد بلغ بى الحماس أن كدت أن أقتل ضابطا ادعى عدم معرفته بكلمة سر الليل لخداعى واختبارى، وأمام زناد بندقيتى أسرع بإنقاذ نفسه بذكر كلمة سر الليل، التى علمنا هو شخصيا قتل كل من يظهر فى المكان المحرم دون أن يعرفها.

ولقد خفف من حالتى النفسية السيئة بجانب روح الكشاف اهتمام القادة بى أثناء التدريب التكتيكى وثناؤهم علىَّ. إن تَحقّق الذات يعطى شعورا بالراحة والقوة للتغلب على أى موقف. وقد بلغ تحقيقى لذاتى الذروة عندما صُنِّفْتُ بين الرماة الممتازين، وأيضا خلال عمليات الرمى والتنشين نفسها، فكم يسر النفس إصابة الهدف. أيضا ساعد فى إنعاشى نفسيا إبلاغ أهلى

بتجنيدى تليفونيا، ثم منحى إجازة خميس وجمعة، وبالفعل وجدتهم ،
استبد بهم القلق. لقد ذهبوا إلى منطقة تجنيد الإسكندرية للتحرى .
أخبارى، حيث كان والدى يعلم أننى أسعى لمد تأجيل تجنيدى، وقد علم
منها أننى جندت. لقد كانت زيارتى لهم سببا فى تبديد قلقهم وقلق
وهكذا بدأت حياتى فى الهايكستيب بشىء كثير من التوازن وبقدر لابأس
من الرضا الذى حملت نفسى عليه.



« ٥ »

أيام الهايكستيب

٤٥ يومـا من التـدريب البـالغ الدقـة والإثارة فـى هذا المعـسكر. أول مـحاضـرة تلقـيناها من ضابط قناص. كانت المحاضـرة حـول دور القناص وقيمته حتى إن الموجودين بما فيهم أنا ارتفعت ثقتهم فى أنفسهم، حيث بدا لنا أن الجندى القناص له مكانة رفيعة تفوق أى جندى آخر. ما أحلى الثقة فى النفس ونيل تقدير الآخرين. وكان التدريب على بندقية شكلها بسيط لاتثير كثيرا من الانتباه فى مظهرها، ثم اكتشفنا مدى تعقيد هذه البندقية وصعوبة ضبطها الذى كان قد يستغرق أسبوعا، ويصحب ذلك حسابات معقدة.

لقد قمنا أيضا بتلقى دروس نظرية تقوم على مسائل حسابية معقدة كان يستغرق أحيانا حل المسألة من الصفحات اثنتين أو ثلاثا. وكنت أتساءل كيف أتصرف إذا ظهر فرد من أفراد العدو ظهورا مفاجئا لمدة ثانيتين أو ثلاث ثوان؟ هل يتاح لى خلال هذا الوقت القصير عمل الحسابات ثم التنشين واصطياد الفرد المعادى؟

ونقدم مسألة مبسطة على سبيل المثال : هناك شخص على بعد ١٠٠ متر، وهو يتحرك من الشمال إلى الجنوب، وهناك رياح أو تيارات هوائية من الشرق إلى الغرب، فما هى السرعة ، وماهى المسافة وماهى بؤرة

الاتجاه، وكم تبلغ البؤرة الخاصة بتلسكوب البندقية، وذلك على أساس عند إطلاقك البندقية من موقفك (كذا وكذا) أن تصيب الهدف بشكل صحيح.

حمدا لله برغم هذا حققت تفوقا، أيضا استمر هذا التفوق على مدى أيام الدورة التدريبية الممتدة ٤٥ يوما. لقد تبدد تماما خلال هذه الأيام شعورى بالصدمة النفسية التى أحدثتها لى الأيام الأولى. لقد التصقت بسلاحى واندمجت فى قضية المواجهة مع إسرائيل، وصار القنص لى حرفة مقدسة، وهى أيضا مثيرة تذكرنى بالقناصين العباقرة الذين كانت تحكى عنهم أفلام السينما. لقد أصبح سؤالى لقادتى هو: متى يتم إرسالى إلى الجبهة؟

ومع هذا السؤال كانت هناك عمليات نفسية هائلة داخل نفسى لتهيئة هذه النفس لتصير هى وقضيتها شيئاً واحداً. لم يكن الأمر سهلا مع تركيز كل طاقتى وروحى الوطنية وحس الانتماء للوصول إلى هذه الغاية. كانت دائرة القضية هلامية هيولية لم تتحدد تماماً. لم أستطع بالهايكستيب الإمساك بخيوط نفسى مثل إمساكى ببندقية القنص. وكنت أخشى أن أجد نفسى على الجبهة بخارج شديد الحماس والثقة، وداخل تسكنه نفس لم تُعَد تماماً لمواجهة المهمة المستحيلة والمخاطرة الفتاكة التى سوف أقبل عليها. «إننى سوف أقتنص أفراد العدو وأقتلهم». هل تعرفون كيفية انفجار هذه العبارة إلى منظومة من الأحاسيس داخل النفس. إن توافق الخارج والداخل معاً فى هذه المهمة أو القضية كما أسميها من الضرورات الحاسمة. تعرفون لماذا؟

الشرط الأول فى القناص هو هدوء الأعصاب واتزانها إلى حد يكاد يشبه البرود والانفصال عن الواقع، بمعنى أن القناص قد يحدد هدفه

ويصوّب إليه بندقيته فى جو من القصف وانفجار القنابل، فإذا دوّى بجانبه انفجار قنبلة فى لحظة التصويب هذه، واهتز لها شاربه أو أولاها قدرا من اهتمامه فحسب، ولا أقول يفزع بعض الفزع بأن يقفز مع قلبه صدره، ضاع منه الهدف بل وكشف نفسه وعرض حياته، وربما موقعه كله لخطر جسيم. كيف يمكن أن تُركّز فى عمل وأنت منفصل عن واقع شديد العنف والضجيج والخطر من حولك، إذا كان هناك انفصام للداخل عن الخارج؟ لعل أصعب مهمة سوف يعانيها القناص هو الوصول إلى هذه القمة من التركيز بامتلاك كامل لأعصابه، فلا تهتز إلا بإذنه.

وهذا التركيز يحتاج بجانب الأعصاب المتماسكة شجاعة تلقائية تم تدريب النفس عليها، وليس تلك الشجاعة التى يقوم فيها الإنسان بلم جماع نفسه والإمساك بها فى لحظات الخطر مثل تلك التى يتحدث عنها شاعر الخوارج:

أقول لنفسى وقد طارت شعاعا   من الأبطال ويحك لن تراعى

أيضا يحتاج القناص إلى قدرة فائقة على التمويه والكمون فى صبر حتى يأتيه رزقه ويوقع بفريسته وهى مغيبة الوعى، ولايتم ذلك أيضا إلا بخيال واسع يحل شفرة تمويهات العدو، وتلك هى موهبة الفنان التشكيلى التى ستقف بجانب العِلْم فى تفوق القناص الجديد الموجود تحت الإعداد واسمه الفتى نوار (أقصد ذلك الفتى الذى تعده القوات المسلحة وأعده أنا شخصيا من أحمد نوار المعيد بكلية الفنون الجميلة، والمجند حاليا بالقوات المسلحة).

لقد بدأت آلف البندقية العجيبة ذات البنورة المسحورة (التلسكوب). إن خطأ ملليمتر واحد فى الحساب أو أثناء التصويب يمثل كارثة. لكن أيضا القناص الجيد يعلم أنه لامجال للخطأ. يوجد بتلك البندقية تلسكوب للتكبير ورؤية الهدف وتحديده بدقة. التلسكوب يتحرك على محور ماسورة البندقية. وضبط المحورين معا من أشق المهام التى تستغرق وقتا وصبرا.

لقد استقبلنا تدريبات مكثفة على الأهداف الثابتة والأهداف المتحركة. وقد تعلمنا كيفية عمل حسابات سريعة ودقيقة بسرعة خارقة عند ظهور العدو بشكل مفاجئ. لقد أكملنا التدريب وتمرسنا على استعمال بندقيتنا، واختلفنا فى نهاية التدريب بعد انقضاء أيامه الخمسة والأربعين عما كُنّا عليه فى بدايته. لقد تشكلنا خلقا آخر، وأصبحنا مع سلاحنا مستعدين لإيقاع خسائر مباشرة وواضحة بعدو الوطن ومغتصب أرضه وشرق قناته.

وغادرنا الهايكستيب إلى الجبهة. وأصبحت في مواجهة مباشرة مع العدو الإسرائيلى، بعد أن كان يفصلنا عنه مواقع مصرية متقدمة. هاهو موقف القناة المنشطرة يذكرنى بموقف القدس المنشطرة، وشتان بين الموقفين هاهنا أواجه العدو بنية التقدم والعبور، ولم أضطر أن أقفل راجعا موليا ظهرى ونفسى تقطر حزنا كما حدث فى القدس، والفرق الجوهرى الجديد جدا أننى فى القدس لم أكن مسلحا، ولكننى الآن مسلح من حولى تحمينى وأحميها قواتنا المسلحة الباسلة، التى قامت بخوض حرب مذهلة لم تلق حتى الآن حظها من الدراسة والاهتمام والبروز: إنها حرب الاستنزاف. وبدأ الفتى نوار أو الفتى القناص فى الديفرسوار ـ حيث كان موقعه ـ مرحلة جديدة ومذهلة من حياته العسكرية والفنية على شاطئ القناة الغربى، يعزف على بندقيته القناصة مع جنود مصر لحن خلاص الوطن من العدوان الإسرائيلى. سنرى فيما يلى من فصول ماكان من عجائب القنص والكمون الفتاك، الذى كان ينهيه دائما الفتى القناص بفريسة من عدو لايعرف حتى ذلك الوقت سوى لغة الافتراس، وإذا به يصير الفريسة. لم يتحقق ذلك إلا بعد مواجهة المصريين لليهود، وهذا سر لايعرفه من لايفهمون نزع سلاح سيناء، إنه خوف تأصل داخل جنود العدو وقادته من أية مواجهة مباشرة مع المصريين، فلا يبقى لهم إلا الغدر والحرب من وراء ستار، فحذار!!

«٦»

الخيال

لقد وصلت للجبهة فوق أتون خط الدفاع الأول فى نقطة الديفرسوار، حيث بقيت هناك إلى أن خرجت من الجيش أواخر عام ١٩٧٠. وقبل وصولى للجبهة كنت أتخيلها كل ليلة وحدى أو مع زملاء السلاح والتدريب فى الهايكستيب. لقد كان خيالا هائلا يرسم قناة السويس ويضع العدو على الضفة الشرقية ويضع قواتنا على الضفة الغربية، وأرى العدو أمامى وأبدأ عمليات الكمون والقنص وسط وابل من القنابل والمدافع والصواريخ وكل أنواع السلاح. من المدهش أننى عند وصولى إلى الجبهة لم أجد فارقا كبيرا بين الواقع والخيال.

المفاجأة التى اكتشفتها عند وصولى إلى الجبهة هى أننى نجحت تماما بإعمال الخيال والتركيز على خلق التوافق بين عالمى الحسى الخارجى وعالمى الداخلى، وتم اندماجى التام فى القضية حتى نسيت المدينة وعالمى خارج القوات المسلحة، بل والفن نفسه، وكانت دهشتى أن الأهداف الحقيقية من أفراد العدو الإسرائيلى لاتكاد تختلف عن الأهداف الوهمية خلال التدريب، أو عبر تخيلاتى الليلية بعد انتهاء كل يوم من التدريب. لقد كانت حالتى النفسية مرتفعة لاختيارى فى المعادى كأحد الرماة المميزين والمتفوقين، مما هيأنى لاستقبال دورة الهايكستيب بشكل فيه إثارة، أمام سلاح جديد لم أسمع عنه من قبل أو أره إلا فى الأفلام الأمريكية.

إن دقة السلاح ومزجى الخيال بالواقع ملآنى بالتحريض الذاتى لأتوغل فى احتواء هذا السلاح وإصابة الأهداف التى كانت فى خيالى جنودا من جنود العدو، وليست أهدافا وهمية. لقد كان تصويبى جادا ومركزا، وأينما تحركت البندقية فى أى مكان كانت ضرباتى كلها مجمعة، بمعنى دقة انضباط سلاحى فى مركز الهدف، أو بمعنى آخر سهولة التوجيه نحو ذلك المركز مهما كان بعيدا، ومهما كان انحراف اتجاه ضبط البندقية لأن البندقية مع ضرباتى - كما سبق القول - كانت مجمعة، حيث أسرع كلما ظهر هدف بضبط الضرب نحو منتصفه ليصبح التجمع فى المنتصف أيضا. . وهذا يعنى أن الفتى القناص الذى تم استخراجه من ذاتى كان ماهرا فى السيطرة على سلاحه بكفاءة عالية من الضبط والتجهيز. لقد أسقطت كثيرا من أفراد العدو برصاص بندقيتى قبل أن يحدث ذلك بالفعل، بسبب جموح خيالى. إن هذا النجاح رفع روحى المعنوية كثيرا ووضعنى على الجبهة فى الحلم قبل أن يضعونى على خط نارها فى الواقع.

وهكذا وصلت إلى حالة تصوفية أنستنى كل شىء، إلا الجبهة والقتال والحرب حتى إننى بعد تلقى خطاب من إسبانيا لتسلّم تلك الجائزة العالمية التى نالتها لوحة العيون من بين لوحات رسامين من ثمانين دولة، لم يمثل لى الخطاب شيئا، بل إن الجائزة التى أدارت رأس الفتى نوار الفنان المبتدئ ابن ٢٢ سنة، والتى كسبها لوطنه لم تعد تمثل شيئا للفتى القناص نوار. ومع ذلك فقد قدمت الخطاب لقائد كتيبتى. كان الخطاب دعوة لمدة ثلاثة أيام لتسلم الجائزة والعودة. رفع قائد كتيبتى الأمر إلى قائد الجيش الثانى، وهذا بدوره رفعه إلى وزير الحربية. المفاجأة أن وزير الحربية وافق على سفرى. وأتذكر أنهم أرسلوا لى كى أسافر إلى إسبانيا. لقد وصلتنى هذه الرسالة بعد حفل توزيع الجوائز فى مدريد بيومين. من ثمَّ، توجهت لجهة الاختصاص بالقاهرة كى أرفض قبول السفر، وكان من الممكن أن أفعل ذلك

من مقر كتيبتى على الجبهة، لكن اعترتنى الرغبة فى شكرهم لاهتمامهم بأمرى وسط مشاغل لاحدود لها. وقد فسر بعض الخبثاء أن وصول الموافقة متأخرة لم يكن إلا لمنعى من السفر بطريقة مهذبة حتى لا تنخفض روحى المعنوية. ولم يَفُتّ ذلك من عضدى بل وجدته شديد الإيجابية والذكاء لوكان صحيحا، لأن معنى ذلك أن القوات المسلحة أصبحت تهتم بالفرد الجندى إلى هذا الحد الذى لم تعرفه من قبل، ولم يعرفه - بالتالى - الجندى المصرى.

الخطير فى تكوينى النفسى عند وصولى للجبهة أننى لم أغير شيئا من مفاهيمى ورؤيتى للعالم، ومع ذلك لم تكن هذه المفاهيم والرؤية بذلك الوضوح الذى عشته عند وصولى للجبهة. لقد تعمقت المفاهيم واتسعت الرؤية. فتلك الحرب التى اكتشفتها فى القرية ثم عبر قراءاتى فى المرحلة الجامعية عن فيتنام وفلسطين وتشرد اللاجئين الفلسطينيين فى الآفاق، ثم عبر إحساسى بالتفرقة العنصرية باعتبارها نوعا من الحرب.. أقول تلك الحرب ها أنا أراها شخصيا وأصير جزءا من آلتها القاسية. ومن هنا بدأت تأملاتى فى الحرب تحملنى إلى ما أطلق عليه قانون الظلم، وذلك بحثا عن العدل وراحة الإنسان وحقوقه. وهكذا بدأت رؤيتى لتفتق العبقريات فى اختراع أسلحة الدمار الشامل وأسلحة الفتك، كما بدأت أرى مئات المليارات سنويا تصرف على تصنيع ما تتفتق عنه هذه العبقريات من أدوات قتل وفتك ودمار. هناك مثلا النابالم الحارق، وهناك الصواريخ التى تنفجر فتتطاير منها فى كل اتجاه آلاف المسامير القادرة على اختراق جسم الإنسان وقتله فى الحال. إنها مسامير مسممة حارقة جارحة قاتلة.. وهناك وهناك..

ثم انظر فى الجانب المضاد للحرب فلا أرى من الجهد إلا أقله، ولا أرى

من العبقريات إلا الأفراد، ولا أرى من تمويل إلا عطاء البخيل، فإذا كان السلاح يستخدم للظلم والقهر، ويحاط بكل العناية من العقول والمال، فماذا نستخدم لرد الظلم ودحر السلاح إلا السلاح، وهكذا يتورط الجميع فى اللعبة لكن كل قرش يدفع فى السلاح أكاد أظن أن طريقه الأوحد هو جيب الظالم.. دائرة مفرغة لكن فى النهاية لابديل من حرب الظالم وقتاله، ولابديل من الوقوف مع الحق والعدل، وهكذا منذ طفولتى وأنا أعيش قضية الحرب بحثا عن أفق إنسانى وبحثا عن مواقف تدعم المظلومين.

من هنا كان مشروعى الفنى يدور حول الحرب حتى أن بعض النقاد الإسبان وصفوا الفتى الفنان بأنه (أسير الحرب) مرة (ومطوق الحرب) مرة أخرى، وهأنذا على الجبهة فى وسط الحرب أقاتل مع المقاتلين، لكن القتال الأكبر كان التمسك بمبادئ تنمو معى وتكبر حاولت دائما أن أعبر عنها فى قتالى ضد العدو المغتصب، ثم فى لوحاتى التى لم تفتأ تنشغل بالحرب داخل أفق إنسانى عميق وعريض. وأذكر أننى دائم الاختزان للخبرة ولاسيما خبرة الحرب حتى إنى، بعد مغادرتى القوات المسلحة فى آخر ١٩٧٠، استأذنت فى اصطحاب بعض شظايا المعركة معى، وكان هذا غير مسموح به، لكنهم سمحوا لى لتشجيع أعمالى الفنية عن الحرب لرفع الروح المعنوية للشعب المصرى، وبالفعل فى شهور قليلة رسمت حوالى ٧٠ لوحة عن الحرب اشتركت الشظايا فى تحديد رتوشها وأقمت معرضا عن الحرب فى نفس العام، أى إننى لم أغادر الجبهة بخيالى برغم مغادرتى لها بجسمى، وقد حملت بعضا منها فى شكل تلك الشظايا التى مازلت أحتفظ ببعضها، كى يختلط الخيال ببعض واقع الحرب الذى لايقل مجازية وخيالا عن الخيال نفسه. ألم تتحول الشظايا فى معرضى - وهى الدمار نفسه - إلى تماثيل ضد الدمار، تفتح أمام العيون آفاقا من خيال يحكى البقاء والخلود، برغم القوة الساحقة اللامعقولة لأدوات الفناء؟ لقد أصبحت لى عين قناصة ترى

الحرب كما نرى الواقع عن بعد أو من فوق جبل ـ كما يقول جبران خليل جبران ـ فيبدو أوضح من رؤيته عن قرب أو من سفح الجبل. ألم أرسم حرب فيتنام دون أن أعيشها وأراها؟. لقد أعطانى الوطن الكثير كفنان يوم أتاح لى أن أقاتل دفاعا عن أرضه المقدسة لأنها أولا مقدسة بسبب أنها أرض الوطن، ولأنها ثانيا مقدسة عند الله الذى باركها بنور أنبيائه.





«٧»

الجبــهة

بعد انتهاء التدريب فى الهايكستيب لم نحصل على أية إجازة. لقد انتقلنا فجأة إلى الجبهة. لقد تحرك من معسكر التدريب حوالى ٢٥ فردا فى سيارة واحدة، وصلت إلى موقع خلف كوبرى الفردان عند خط الدفاع الثانى. كان من بين هؤلاء الأفراد قناصان اثنان فقط: أنا وزميل آخر. تم إلحاقنا بالكتيبة ٣٦٠ مشاة. كان إلحاقا تكتيكيا مؤقتا حتى يتم تطعيمنا بجو الحرب ونتعود على مستوقد النار والانفجارات المستمرة مع أزيز الطائرات وضجيج تفريغها لحمولتها من القنابل فى مواقع الخط الأول. لقد كان تحركنا بالمساء ووصلنا ليلا. لقد أسعدنى الحظ عند وصولى بلقائى بقائد فصيلتى واسمه الملازم أول حامد عبد الرحمن، وهو مازال حيا حتى الآن وشارك فى حرب أكتوبر. لقد أحسن استقبالى بأسلوب طيب للغاية. لقد سلم علىّ بترحيب وسألنى عن كليتى وشهادتى، وعندما أخبرته بدأ بسؤالى عن أصحاب لى بالكلية. وبين هل تعرف فلانا، ورد نعم أعرفه دعانى إلى خيمته أو ملجئه، وأعطانى برتقالة ظللت أذكرها بكل ود وعشق طوال فترة تجنيدى كلما ذقت سيّئ الطعام أو حتى كلما عضنى الجوع.

لقد كان الطعام معاناة ولعل من المفيد الإشارة إلى أن السبب الأكبر لهذه الأزمة الطعامية سواء فى السلم أو الحرب (وكلنا نعرف قصة العدس

فى طعام الجنود)، هو إسناد المطابخ لمجندين لاخبرة لهم بها . أليس من المفيد أن تفتتح القوات المسلحة مدرسة لتخريج طباخين محترفين يعملون بشكل دائم فى مطابخها؟ إنى أظن أن ذلك سوف يعطى صورة مشرقة لقواتنا المسلحة بعد تلافى نقص سوء الطعام، بل إنه سوف يقلل من الفاقد، ومن التكاليف الباهظة لإعداد الطعام، تلك التكاليف التى ترتفع أرقامها كثيرا لعدم خبرة مجندى المطابخ، بينما ينخفض عائدها فى نفس الوقت، بل ويتحول إلى بؤس لأعز أبناء الوطن.

المهم بعد سعادتى بالبرتقالة التى سوف تتجدد مع مرور أيام القتال بدأت المأساة عند توزيعنا على الملاجئ ضيقة المدخل قليلة الاتساع. لقد كان بالملجأ ساعة النوم من ٨ إلى ١٠ أفراد بمعداتهم. لقد أطبق السقف على صدرى، وتوقعت سقوطه فى كل لحظة، فنمت بطريقة عجيبة حيث أدخلت جسمي كاملا فى الملجأ وأخرجت رأسى خارجه للتنفس، وبدأت لعبة دون ملل بينى وبين قائد الفصيلة، فقد أمرنى بإدخال رأسى، وحذرنى مامصيرى لو سقطت شظية وأطاحت بهذا الرأس البارز. أدخلت رأسى وبعد انصرافه أخرجته، وعاد ليدخله لى، وعدت لأخرجه فى لعبة استمرت حتى انتقالى إلى الديفرسوار حيث شاء الحظ السعيد أن أحظى هناك بملاجئ متسعة نوعا ما وعالية السقف. لقد ملأنى ملجأ الفردان بالفوبيا أو بمرض الخوف من الموت اختناقا، حتى فضلت الموت بشظية على الموت بالاختناق.

دق قلبى عندما تحركنا نحو الجبهة، وهناك في موقع الفردان الخلفى بدأ التعود على جحيم الحرب. لقد كنا نشاهد القنابل والطائرات والانفجارات أمامنا فى خط الدفاع الأول بشكل واضح. وأتذكر استشهاد عبد المنعم رياض فى الموقع المقابل لنا أثناء وجودى فى الفردان الذى استمر أسبوعين وبعض الأسبوع. لقد دخل أحد الملاجئ لمتابعة خطة ضرب النار،

وسقط صاروخ معاد على الملجأ فأحدث ضغطا وتفريغا للهواء فجر شرايينه. لقد تهيأنا جيدا لاختراق خط الدفاع الأول لأبدأ مهمة القنص، بعد معايشة الضرب والاشتباكات عن كثب. لقد تعلمنا فيما بعد أن خط النار المباشر أكثر أمنا من الخطوط الخلفية، أو هكذا تخيلنا. إنها نظرية المواجهة التى أشرت إليها، ففى الخطوط الخلفية تستقبل قنابل العدو، وكأنك فى بيتك مفتوح الباب يغير عليك عدو، أما فى خط النار المباشر، فهناك الاشتباك والتعادل، ومراقبة العدو وتوقع نزواته بل واستفزازها.

تعودنا على الجبهة وانتهى وجودنا فى الخط الخلفى. ونقلونا إلى الديفرسوار من طرق غير مطروقة لفّت حول الإسماعيلية. وصلنا بعد ساعات ثلاث لنفاجأ بكتلة من السواد تطل علينا. لقد كانت غابة الديفرسوار. لم نكن نرى شيئا فى هذا الجو القاتم سوى طلقات تضىء الفضاء مثل البرق مع قنابل تسقط هنا أو هناك مع وجود بعض السيارات المتوقفة. لقد قطعنا المرحلة الأخيرة بين السير والركوب ووصلنا وقد اعترانا هدوء يشبه هدوء الليل هناك دون أن تعكره تلك القذائف، وكأنها دقات ساعة غير منتظمة يرن صداها منتشرا فى ساحة الهدوء.

فى الحقيقة من يصل إلى موقع على خط النار حينذاك يظن أنه حقق معجزة، فمن الأشياء الطريفة أن جمال الغيطانى كان مراسلاً حربياً سمع عنى وأراد زيارتى فى الموقع، ووصل بالفعل إلى خط الدفاع الثانى بالديفرسوار، ولم يستطع التقدم إلى الأمام بسبب غزارة الضرب والقنابل، فعاد مع من كانوا معه من حيث جاءوا، ولم تتم الزيارة. والشىء الطريف الذى واجهنى عند الوصول وابل الطلقات (نصف بوصة) التى تتدفق على الغابة، وتكاد ترى أثناء تناثرها كأنها رشاش من جذوات نار تتطاير مضيئة فى الهواء. الغريب بأنها لم تكن تنم عن مصدرها، لأننا نراها وكأنها أزهار

حمراء للأشجار تنثرها فى الجو عاصفة داخل الغابة. لقد تقدمتنى نحو الموقع فى هدوء دقات قلبى وتحرك داخلى الحذّر الطبيعى لمن يخترق مكانا ملغما مجهول المسالك الآمنة.

أخيرا سيبدأ القنص، وملأت رأسى آلاف الأفكار والأسئلة، ونظرت إلى بندقيتى كأننى أسألها العون، وأن تستجيب لحساباتى وضبطى لمحوريها. شجعنى فى البداية توثق علاقتى بقائد الفصيلة. إنه الملازم حامد عبدالرحمن. لقد كان نوبيا جليلا، وقائدا يشبه الظل الذى يعطى الأمان، يعمل مع جنوده فى مواجهة القصف وليس من قواد الكمون فى المخابئ، وإعطاء الأوامر بالتليفون، التى قد لاتزيد على كلمة (تصرّف).

لقد قضيت دون نوم أول ليلة، وفى اليوم التالى صباحا جمعنا القائد ووزع التعليمات، وقدم لى ولزميلى الآخر (كنا اثنين من القناصين فقط، ولم يكن موجودا فى الكتيبة قبل وصولنا أحد من سلاح القناصة) قناصا عجوزا من سلاح الحدود كى يعرِّفنا على مواقع العدو، وكيفية ضربه. لقد أسدى إلينا من النصائح ماهو ضرورى عن المناطق الضعيفة فى تحصينات العدو، وفيما يبدو أن هذا القناص العجوز كان قد قتل عددا من جنود العدو، وقد تركنا على الفور إلى موقع آخر. وقصته تتلخص فى أن الجيش المصرى لم يكن به سلاح للقناصة قبل ٦٧، فاضطر إلى الاستعانة بعدد من قناصة سلاح الحدود ووزعهم على الوحدات حتى يتم تكوين سلاح القناصة الجديد وتدريب أفراده.

وهكذا تحملت مسئولية القنص فى الموقع أنا وزميلى الآخر الذى كان راميا ممتازا، لكن قدراته التكتيكية كقناص بدت ضعيفة المستوى، مما أفقده قدرا من التوزان، وذلك عيب قاتل فى القناص.

بدأت أتعامل على الفور مع موقعى الجديد، فى محاكاة لمن فى الموقع

مستكشفا لقدراتى، فمثلا عندما يبدأ الضرب يهرع أفراد الموقع للملاجئ فأسرع معهم إليها، ومع ذلك ففى البداية كنت أضل الطريق إلى ملجئى بالليل. واكتشفت صدق ماعلمونا فى التدريب حول دور القناص، حيث رأيت نفسى حرا تماما لا أتلقى أوامر أو تعليمات من أحد، وعلىّ فقط قضاء الوقت بحثا عن صيد، وترتب على ذلك أننى بدأت أستطلع مواقع العدو بالتلسكوب فى لحظات السكون أو الهدنة من الضرب. لقد كان العدو قريبا يمكن رؤيته بالعين المجردة، فلا يفصلنى عنه سوى عرض القناة ثم عرض طريق على الضفة الشرقية ثم أسوار من الأسلاك الشائكة. إننى أتحدث عن مسافة لاتتجاوز المائة متر إلا ببضع عشرات من الأمتار. وهكذا مع حركة التلسكوب كنت أشاهد كثيرا من التفاصيل مثل الأسلاك الشائكة ودشم وألغام، وتصادف أن شاهدت شريطا من الخيش ثم علما إسرائيليا.

فى اليوم الثالث بدأت أعرف مواقع معينة للعدو بها نقط استطلاع، حيث يظهر شريط الخيش أو صندوق يجلس خلفه تحت الأرض أحد جنود العدو. ومرت أيام ولم يظهر أحد فى تلك المواقع اللهم بين الحين والحين يبرز بعض رأس وفى الحال ينزل مختفيا. ووصل اليوم الذى لاحظت فى ممر يعد أحد مداخل البحيرات المرة (التى يعد موقعنا لسانا داخلها فى الديفرسوار) ظهور خوذة وتحتها عينان لإسرائيلى، ظللت أراقبه أسبوعا دون أن أحرك ساكنا من باب التمويه. وخلال ذلك عثرت على أفضل مكان أكمن فيه لضربه. لم أكن أعرف على وجه الدقة كيف سأفعل ذلك. ولعلى كنت أجرى تجارب مع نفسى. لقد أحسست بأننى أقوم بدور الممثل. لم أكد أصدق مايحدث. إننى فنان مرهف الحس لا أتصور كيف يمكن لإنسان أن يقتل إنسانا آخر، وهأنذا أكمن لقتل إنسان آخر فى شىء من التصميم، لا أدرى كيف حدث هذا التحول الهائل فى شخصيتى. هنا أدركت بعمق شعورىّ، لاعلاقة له بالمنطق معنى الدفاع عن النفس، ومعنى ثأر المظلوم من

الظالم الطاغية، إذا أتيح للمظلوم فرصة دفع الظلم عن نفسه. هكذا ياسادتى ياكرام بعد أسبوع من التمويه خرجت بنية ممارسة أول عملية قنص. وقد أخذ أفراد الموقع يراقبوننى بالبيروسكوب لينظروا ماذا أنا فاعل، وهكذا ينمو إحساسى بأننى مازلت أمارس تمثيلية فى وجود متفرجين، إما أن يصفقوا للممثل فى نهاية التمثيلية؛ وإما أن يحملوا بقايا ونثار جثته إلى قعر الأرض.

أخذت موقعى وراء نخلة تبرز شواشيها من الساتر الرملى الذى تمت إقامته أخيرا لستر موقع الديفرسوار، الذى يكاد يكون أقوى مواقعنا على غرب القناة تحصينا وتسليحا حتى وصل إلى درجة التعادل التامة مع الموقع الإسرائيلى المقابل. بدأت ضبط زاوية الضرب، وكانت خيبة الأمل كبيرة فى يوم طويل سيعوضنى الله خيرا فى آخره. كيف كان ذلك؟ الصفحات التالية سوف تجيبك.

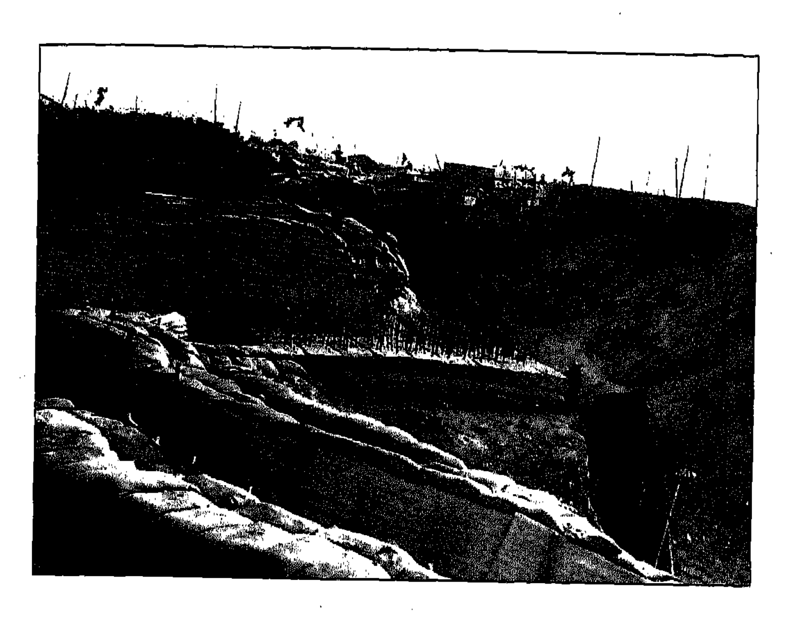


«٨»

أول القنص قطر

كما علمنا وقف الفتى القناص أمام أول صيد له محتميا بسعف نخلة تطل رأسه من وراء الساتر الترابى للموقع المصرى، ويكاد يُبرز حواف كتفيه فى تمويه للعدو يخلط بين النخلة وبين جسمه، وضَبَطَ بندقيته للضرب على زاوية ١٢٠° ، تماما نحو الهدف، ذلك الجندى الإسرائيلى الذى يظهر للفتى القناص الآن ٣/٤ رأسه، فوضعها داخل دائرة الضرب. انهمرت الرصاصات (نصف بوصة) من رشاش نحو الفتى القناص من الموقع الإسرائيلى. تم إطلاقها بزاوية بين ٣٠° ، ٤٥° من الجهة اليسرى، حيث برز كتفى الأيمن خارج جذع النخلة، وكان التصويب نحوى، فمرت الرصاصات لحسن الحظ فوق رأس الفتى القناص دون أن تمس كتفه، فتجرد من قنصه وشجاعته، وصار الفتى العادى نوار الذى يخشى على حياته.

لقد عدت إلى نفسى بسرعة خارقة، وقفزت (نطرت نفسى) دون قفز لأجد نفسى أزحف بعيدا عن النخلة بأربعة أمتار، ولأجد عشرات الأيدى تمتد من المتفرجين (عفوا من زملائى الجنود)، وتسحبنى نحو الملجأ. لقد حاولت أن أضرب فسبقونى وضربونى. لاشك أن الطلقات التى استقبلتها من الرشاش (نصف البوصة)، لم تصدر من قناص إسرائيلى وإلا كنت قد رحلت عن هذا العالم فى الحال، بل كما سنرى بعد لم يخطر ببال الموقع



الإسـرائيلى أننى قناص حتى يقتنصونى. فى الملجأ الذى جذبنى إليه زملائى، تعرضت لفحص دقيق منهم بحثا عن إصابات فى جسمى، ولم يجدوا شيئا، لأن الإصابات كانت من نصيب النفس دون الجسم، حيث انهمرت الدموع من عينى، وطفقت أبكى. طال البكاء والنهنهة لدرجة أن زملائى لم ينجحوا فى تهدئتى إلا بعد أكثر من ساعتين.

أحسست بعد ذلك بالهدوء النفسى، واستيقظ فى أحمد نوار الفتى القناص الذى ارتدى ملابسه العسكرية، وحمل بندقيته، وخرج من جديد للاستطلاع والصيد. لقد أدرك الفتى القناص أن الاستجابة للراحة أو الاسترخاء أو التوقف عن الاستطلاع لبعض الوقت يلغى المهمة تماما، ويفقده سبب وجوده هناك. من ثمّ، حسب الأمور جيدا وكأن بصره لم يفقد رؤية الإسرائيلى بارز الرأس فى الضفة الأخرى، كما لم تفقد ذاكرته موقعه. ففكر فى البحث عن مكان فى الموقع المصرى أكثر خفاء وأقرب للهدف فى

نفس الوقت. كانت الساعة بين الثالثة والنصف والرابعة بعد الظهر. وجدت العدو الإسرائيلى هذه المرة واقفا، وقمت بحسابات تشكيلية. إن الشمس تميل نحو الغروب بزاوية معينة والإسرائيلى ينظر بزاوية ما لعلها تتحرك مع ميل الشمس التى تسقط علىّ أشعتها. بالتالى فإنه سوف يرانى، أو على الأقل سوف يرى ظلى خلف أى موقع أكمن فيه.

ترك الفتى القناص أو قل تركت نخلتى ذات السعف الذى مزقته منذ قليل الرصاصات وتوجهت إلى مكمن عميق فى لسان الديفرسوار، حيث كان يخرج من اللسان لسان آخر نحيل الاتساع بنيت عليه فيللا لمراقبة السفن الآتية والذاهبة. وهذا اللسان النحيل لايوجد عليه ساتر ترابى مصرى مثل بقية موقع الديفرسوار، وإنما أحضروا عددا من مراكب الصيادين الصغيرة، ثم رصوها فوق بعضها فى أوضاع متعاكسة، وملئوها بالرمل لتغدو ثقيلة فلا يبدد شملها قصف القنابل. كان ترتيب المراكب يؤدى إلى وجود ثقوب أو ثغرات يمكن رؤية الضفة الشرقية خلالها. وسبب هذه الثغرات هلالية شكل المراكب، وعدم استقامته. نظرت فى أحد هذه الثقوب المثلثة الشكل، وقلّبت زوايا النظر، فإذا بى أقع على ذلك الشخص الذى سبق لى أن حاولت قنصه، وأعود الآن لرؤيته بعد خروجى من الملجأ من جديد للاستطلاع. هنا تأكد لدى شيئان: الشىء الأول: أنه قد يكون نفس الشخص أو زميلا له حل محله طبقا لنظام الورديات، والشىء الثانى : فى الحالتين هم لم يتنبهوا إلى أننى قناص، وإلاّ ماظهر ذلك الشخص فى موقعه هذا الظهور الذى يجعله هدفا سهلا، فقد رأيته يقف ويتثاءب، وهذا خطأ إنسانى منه، أحيانا لايمكن تجنبه عند أكثر الناس حذرا، فالكمون فى وضع معين للجسم ساعات طويلة أمر لايحتمل. قدرت أننى كما أراه من ثقبى الذى تخترقه الشمس فإنه سوف يرانى، ولاسيما عندما أتحرك خلال ضبط بندقيتى وتصويبها نحوه. هنا لعب الفن التشكيلى دوره، بل ولعله الفن المسرحى القديم المسمى خيال

الظل. اعترتنى ابتسامة وأنا أفكر فى ذلك عندما ربطت موقفى الأول بالتمثيل. أليس الفن بما يملك من حيل فنية وتخييل أكثر الأشياء إفادة للتمويه العسكرى؟ المهم التقى الفنان نوار مع الفتى القناص وأفرغا شيكارة رمل وأعدّا منها قطعة خيش تم إلصاقها على الثقب وتم إدخال فوهة البندقية من فتحة صغيرة تم شقها فى الخيشة. وهكذا مهما تحركت خلف الخيشة فلن يرانى أحد، بينما أنا أرى الجانب الآخر جملة من خلف الخيشة وتفصيلا من تلسكوب البندقية التى لايسهل رؤية فوهتها الصغيرة المغروزة فى فتحة بالخيشة. لقد تم نصب المسرح، لكن الممثل يرتعد ويدق قلبه بسرعة ويكاد يقفز نبضه من عروقه. ونحن نعلم أن أى اهتزاز أو انفعال يقضى على التمثيلية والمسرح والممثل، والأسوأ أيضا على بعض المتفرجين.

قررت الاسترخاء، وإقناع الفنان نوار بالرحيل بعد انتهاء دوره، وطلبت من القناص نوار الهدوء وتذكر كل شروط القنص الناجح. بعد ٧ دقائق هدأ كل شىء، وأصبح الجسم ثابتا دقيق الاتزان. بسملت ودست على الزناد، وسحبت البندقية تاركا مكمنى، أجرى مثل عصفور فَزِع يطير. لم أحس بأن قدمىّ يلمسان الأرض. الرّوح حلوة. إنها غريزة حب البقاء. لقد كان علىّ بعد الانتهاء من الصيد أن أصل إلى أقرب ملجأ قاطعا ١٥٠ مترا على الأقل فى أقل من ٣٠ ثانية. كنت أجرى وأنا أستعيد التجربة الناجحة فى شكل شريط يمر بنفس السرعة. كيف فعلتها؟ لقد رأيت فى هذا الشريط الفتى القناص ينظر فى التلسكوب. يأخذ نفسا عميقا دون أن يتحرك منه ساكن. يبسمل دون أن تتحرك شفتاه. يضع رأس الولد الإسرائيلى على الصليبة. يضغط على الزناد مودعا رصاصته تاركا لها أمر تفجير رأس الولد، ساحبا البندقية، وها هو يجرى ويلقى بنفسه فى أول ملجأ، ليستقبله زملاؤه بالتهليل بعد أن أدركوا نجاحه من هول النار الإسرائيلية التى عبرت عن

غيظها بصفة خاصة ضد المراكب التى تعرضت لضرب الطائرات وكل أنواع الأسلحة الأرضية لينسفوها نسفا، كما أنهم لم يتركوا موقع قدم فى الديفرسوار دون قذف. لقد رأيت فى كل ذلك جائزة لأول قنيصة. إن أول القنص قطر.

بعد أن انتهى زملائى من احتضانى أبلغوا القيادة. ويكون البلاغ متواضعا، فلا أحد منا يجزم بأن إصابة الإسرائيلى قاتلة إلا بعد أن تتلقى القيادة تقارير نقط استطلاع المخابرات العسكرية التى تراقب العدو فى خفاء وصمت من فوق الأشجار والتباب. إنهم يبنون مكامنهم بين فروع الشجر. لايوجد فى كل موقع لهم غير شخص واحد مع بيروسكوب مكبر جدا، حتى إنهم يرون كل فرد يظهر وكل تحرك خلف خط بارليف. إنهم يرون تفاصيل الملابس أو العرى، كما يرون تفاصيل الملامح مع الحركات والسكنات. وفى حالة مثل حالة القنص التى قمت بها يراقبون ماحدث للجندى المقتنص وماتبع القنص من إسعاف أو إجراءات. بل إنهم أحيانا يرون خط سير الطلقة حتى وصولها إلى رأس القنيصة. يتم جمع تقارير أكثر من نقطة استطلاع حتى يتم التأكد من تواتر الأقوال حول الحدث. رائع لقد فعلتها ! فعلتها! وأول القنص قطر!

انتهت المعمعة التى أثارتها قنابل العدو وصواريخه وطائراته عقب اصطيادى لأحد أفراده فى حوالى الثامنة حيث استدعتنى قيادتى عبر أحد الجنود الذى رافقنى إلى ملجأ القائد. ظننت أن قيامى بقنص أول فرد من أفراد العدو يتم اصطياده على يدى كان سببا فى استدعائى. عندما دخلت الملجأ لم يكن القائد هناك، وإنما شخص صموت شديد الوقار والجدية شكله لايشجع على أى تفاؤل. قدمنى مرافقى له على أننى الرقيب أحمد نوار، ثم استدار إلىّ المرافق وقال: «اتبع حضرة الضابط حيث يسير دون

أسئلة أو كلام». لم أفهم شيئا وأحسست أن يومى الطويل الحافل لانهاية له، ولاسيما فى هذه الساعة المتأخرة هاهم يكلفوننى بمهمة غريبة وملغزة.

لقد اتجه نحو الشمال وأنا أتبعه كظله، كلانا أعزل من السلاح فقد كان هذا الضابط الغريب لايحمل سلاحا، كما أن مرافقى الذى سبق ذكره جردنى من بندقيتى قبل التحرك. بعد قليل اعترضتنا ترعة فعبرها فى قفزة فقفزت وراءه، ثم صعد على ساترنا الترابى فصعدت خلفه ثم هبط علي طريق السيارات الموازى لشط القناة مباشرة. لقد صرنا الآن هدفا سهلا للعدو، لكن الليلة مظلمة وغير مقمرة، أو أن هذا الضابط الغريب يعرف سحرا يقيه رصاص العدو، أو أن الله سلم. بعد ذلك توسط منطقة الديفرسوار متجها نحو اليمين لينحدر نحو الشاطئ، وجلس على بعد أقل من مترين من المياه، وجلست بجواره على مرمى حجر من مواقع العدو المقابلة التى بدت لى فى الظلام كتلا سوداء.

كان الليل صامتا وصاحبى صموتا. حركة المياه الهادئة وصلت إلى مسامعى فى هذا الصمت الرهيب كأنها الهدير. ملأتنى الرهبة ووضعت يدى فوق فمى لأكتم أنفاسى، ولأتجنب أى احتمال لسعال أو تثاؤب. كنت أتنفس بقدر، ناظرا لرفيقى الذى أمضى عدة ساعات يتأمل فى الكتل السوداء للموقع الإسرائيلى المقابل. انتهت تأملاته وانتفض واقفا، وعاد عكس طريق مجيئنا. حاولت أن أسأل القائد عن أمر هذا الطارق الغريب، فنهرنى بأن ذلك ليس من شأنى.

بعد ذلك عرفت بعض الأشياء عن صاحبنا الضابط المتأمل. لم يكن اللغز شديد التعقيد. إن الضابط الغامض ليس إلا قائد مجموعة عسكرية لتدمير دشم الموقع المقابل. لقد أراد أن يحتوى هدفه ويسيطر عليه، ويتعود على رؤية التفاصيل (التى يبدو أنه يعيها نهارا أو عبر خريطة) فى الظلام.

لقد قيل لى إنه جاء منذ فترة محدودة، وذهب إلى الشاطئ الذى رافقت جلسته التأملية عليه، ثم ألقى بنفسه فى الماء وسبح إلى الشاطئ الآخر كى يتعرف على هدفه شخصيا قبل أن يدمره. لقد شدتنى جدية بل وفدائية هذا الضابط. وبالمناسبة لا أعرف عنه شيئا الآن بل لم أعرف شخصيته أصلا، لكن الجيش المصرى الآن فى حرب الاستنزاف جيش جديد به رجال يتسمون بالعلم والإخلاص للوطن والإعداد الجيد الطويل لكل عمل مهما كانت محدودية وضآلة ذلك العمل. كم تغير الموقف عن موقفنا فى يونيو ١٩٦٧، ذلك الحدث الفظيع الذى شوه ظلما صورة الجيش المصرى فى العالمين.

فى نهاية هذا اليوم الطويل الحافل لم أستطع سوى تذكر شهداء يونيو ٦٧ وضحاياه. يالها من حرب وقع فيها الجيش المصرى بين خيانة داخلية أو صراعات شخصية لا تختلف نتيجتها عن نتيجة الخيانة وبين عدو غادر لا شرف عنده ولا احترام لأى اتفاق دولى أو قيمة.





« ٩ »

القنص الثانى

لقد أكدت تقارير الاستطلاع نجاحى فى القنص الأول. ومع أن القناص شخصيا لديه الفرصة للتأكد من إصابته الهدف لأن رصاصة البندقية القناصة ليست مصوتة خارقة مثل الرصاصات العادية، إنما هى خارقة حارقة، بمعنى أنها تخترق الهدف وفى بداية هذا الاختراق تتطاير النيران وكأنها تخرج من الهدف المخترَق، إلا أنه ينتظر التأكيد والنتيجة من تقارير الاستطلاع مثل الطالب الممتاز الذى يعرف أنه أحسن إجابة الامتحان، لكنه ينتظر النتيجة بلهفة.

بعد ذلك أصبحت لا أنام، بل لا أهدأ أجوب موقع الديفرسوار فى كل مكان بحرية غير معتادة، أصعد شجرة أو مبنى، أسير مكشوفا من مكان إلى مكان بحثا عن الصيد الثانى برغم تعقد الموقف، فبعد القنص الأول أدرك الإسرائيليون وجود قناصة مصريين على الجانب الآخر، فقاموا بتغيير أساليب التمويه. إن دشم خط بارليف عالية وبجوارها فى موازاة لها توجد خنادق تخصص لسير الجنود ولمؤنهم. هذه الخنادق لايزيد عمقها على ٨٠ سم، ولايصح أن تزيد على ذلك، حيث يسير بها الجند أو يكمنون وهم منحنون، ثم يشبون برءوسهم فى حالة الهجوم أو الرد على هجوم، ويطلقون دفعات من الرصاص ثم ينحنون ويختفون فى الخنادق بسرعة.

كان التمويه الجديد هو تغطية مسافات تعلو الخنادق بأشرطة طويلة من الخيش عرضها متران. لقد ظل الإسرائيليون يغيرون سبل التمويه بعد كل قنص بل إنهم اضطروا فى المرات الأخيرة إلى استخدام عدة وسائل للتمويه مجتمعة، وينبغى ملاحظة تلك المتابعة الإسرائيلية والتطوير فى كل شىء، فهم كلما دمرنا لهم موقعا أو دشمة أو أى شىء منصوب كنا نرى مواقعهم فى اليوم التالى وقد عادت إلى سيرتها الأولى، يشيدون ماهدم ويصلحون مافسد. لقد كنت ألاحظ نموا وتطورا يوميا فى مواقع العدو، وفى أسلحته، وتكتيكاته.

ونعود إلى التمويه بخلق آفاق من الخيش تخفى رؤية ما وراءها. لقد لاحظت أن هذا التمويه الجديد يجعل الفتى الفنان يلعب مرة أخرى مع الفتى القناص. الفنان مهتم بالمرئيات والظلال وعلاقتها بدرجة الضوء. والإسرائيليون فى الشرق ونحن فى الغرب تشرق عليهم الشمس فى لحظات خاطفة كما تسقط خلف ظهورنا فيبتلعها الأفق سريعا. الخلاصة كنت أبكر فى عمليات استطلاعى أتابع علاقة الشمس بستاراتهم الخيشية، فالشمس تشرق أولا على المناطق العالية فى الموقع الإسرائيلى فى ذرى خط بارليف بينما يبدو سفح الخط بما فيه السواتر الخيشية قطعة سوداء من ظلام الظلال. وعندما تعلو الشمس تتساقط أشعتها خلف الخيش فإذا اعترض شخص ما خط هذه الأشعة فاصلا بين جدران الدشم والخيش سوف يسقط ظله فوق الخيش، وهكذا بدأت أتابع بالبيروسكوب الأفق الخيشى، فاكتشفت بعض التحركات خلفه، وبدأت أنتظر سنوح الفرصة كى أجد ظلا من هذه الظلال المتحركة فى حالة ثبات أو فى حالة تسمح بالتصويب عليه.

لا أظن أن الإسرائيليين خطر ببالهم لعبة الشمس والظل على شاشة الخيش، وبالتالى لم يخطر ببالهم أنهم قدموا لى المصيدة المناسبة تماما

لعملية قنص ناجحة. ومن المعروف أن هناك علاقة تناسب طردية بين حجم الظل والمسافة بينه وبين ستارة الخيش أو مكان استقبال الظل، فكلما بعدت المسافة كبر الظل، وكلما قلت صغر الظل حتى يصل إلى الحجم الطبيعى تقريبا، وتلك هى اللحظة الحاسمة لانطباق الظل على صاحبه أو بمعنى آخر، عندما يتم التصويب على الظل تخترق الرصاصة مصدر الظل: إنه الظل القاتل المقتول. أيضا يكون الظل بجانب تعادله مع حجم جسم صاحبه مثل الخط المستقيم الذى تتعامد عليه أشعة الشمس، وبالتالى فالاتجاه الذى تصدر منه الأشعة خلف الظل يرشد أكثر لدقة التصويب ويقلل احتمالات أى خطأ.

لقد جاء اليوم بعد انتظار لايمل أسابيع معدودة، واتخذت موقعا مناسبا، وضبطت زاوية الضرب وتم إدخال رأس الظل داخل دائرة صليبة تلسكوب البندقية، وضغطت على الزناد، (وبلّغت فرارا) مثل المرة الأولى. لقد تعلمت الطيران بعد كل عملية قنص، ولم أكد أقترب من أحد الملاجئ حتى انهمر المطر المعتاد. نيران جهنم من كل جانب. وابل الرصاص ودانات الهاون والصواريخ من الموقع الإسرائيلى. يكاد يخطر ببال من يتفرج على مشهد القنص ومايتبعه من فظائع القذائف الإسرائيلية أن الإسرائيليين يقيمون حفلا صاخبا لوداع قتيلهم فى رحلته إلى العالم الآخر، أو عالم ماتحت التراب. لقد بلغت القيادة بلاغا يزيد على البلاغ الأول بعض الجمل ويختلف فى بعض المسميات. لقد قتلت ظلا، وأنا واثق من قتلى له لأنى لاحظت الظل وهو يتجندل على الأرض.

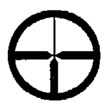
مع هذا القنص الثانى تفاقمت شهرتى بين الزملاء من الجنود، وكادوا ينسون اسمى فهم ينادوننى بالقناص، كما ازداد إيثار القادة لى، فها هو قائد الجيش الثانى يستدعينى لتكريمى بعد صيد كل رأس، ويقدم لى هدية أو

قل مكافأة قدرها خمسة جنيهات مقابل تلك الرأس! بالنسبة لى كانت تلك المكافأة الرمزية كبيرة القيمة، لكنها من ناحية أخرى كانت تضحكنى كثيرا، لأنها فى نفس الوقت تحدد قيمة الجندى الإسرائيلى عند قادتنا. إن ثمنه لايزيد على ثمن علبة سجائر، بينما قيمته عند إسرائيل لاحدود لها، فهم يسرعون بإلقاء قنابل وصواريخ ودانات هاون ومدافع دبابات وطلعات طائرات قد تساوى مئات الألوف من الجنيهات. لا أظن أن القيادة المصرية كانت واعية لمدلول النكتة فى تلك المكافأة العزيزة على نفسى، والتى تتوج جهدا خارقا فى الاستطلاع والإعداد حتى أصل إلى كل رأس أقنصها قنصا.

لم يقف تكريم القادة لى عند ذلك، بل إن قائد الجيش الثانى كان يدعونى أحيانا للإفطار معه فى رمضان، أو على الغداء أو العشاء بين الحين والحين، كما أن قائد الكتيبة بدأ يعقد لونا من الود والصداقة بينى وبينه، بل إنه فى أوقات الهدنة من الضرب أو ساعات هدوء الجبهة كان يدعونى لشرب الشاى معه، ونتبادل الأحاديث حول الثقافة والأدب والفن.

أما مشاعرى فقد تبدلت، فلم أكن أتصور قدرتى على قتل فأر أو ذبح دجاجة، ولكننى الآن يسكن الوطن داخلى وأحس بقداسة التراب الذى أمشى عليه، وتنتابنى مشاعر الغضب عندما أفكر فى أن تراب سيناء تغتصبه أقدام فاجرة .. سيناء الحبيبة التى عرفتها فى رحلة الـ ٧٠٠٠ كيلو متر للتعرف على بر مصر كما ذكرت من قبل فى الصفحات السابقة، فليست مثلثا على الخريطة كما كان أمرها عند معظم المصريين، وإنما هى عندى دلتا أخرى مثل الدلتا التى ولدت وتربيت فيها. إنها من جنان الدنيا. وقد أسكرتنى مياه شرم الشيخ وشواطئ النخيل فى العريش وجمال قداسة دير سانت كاترين، حتى إننى مثل كل زملائى على الجبهة كاد صبرنا ينفد من طول حرب الاستنزاف، وكنا نتمنى العبور لخوض المعركة الفاصلة، لكننا

أيضـا بدأنا نثق بشـدة فى قـواتنا المسلحـة وفى تطورها، وكنا ندرك أن الطريق مازال طويلا وشاقا. أيضا مشاعرى تغيرت عندما كانت تتناثر جثث بعض الزمـلاء برصـاص اليهـود، فـالعين بالعين والسن بالسن، ولهـذا تحـول القنص عندى إلى احـتـراف له طعم الهـواية وازدادت ثقـتـى فى نفـسـى، وشاركت كثيرا من زملائى فى عبورهم القناة فى جماعات صغيرة حتى يتم العبور الجماعى. نعم، لقد عبرت مرارا، حتى إننى فى يوم القنص الثانى شاركت ثلاثة من الزملاء فى مهمة انتحارية بالضفة الأخرى، ومع ذلك عدنا سالمين. لقد حكى لى الملازم أول حامد عبد الرحمن عن أحد الضباط الذى قام بالعبور ٣٩ مرة محققا مهمات مستحيلة، ثم شارك فى حرب أكتوبر، ومازال حيا. لقد امتلأت نفسى بالثقة بالذات أثناء امتلائها المتدرج بالثقة فى الإنسان المصرى الذى يقدم البطولات يوميا فى حرب الاستنزاف، ثم صنع معجزة أكتوبر. أيضا استعاد الجيش المصرى حتى ذلك التاريخ الشطر الأكبر من استعادة الثقة فى نفسه وقياداته وحسن إعداده وتقدمه التكنولوجى ثم الإعداد المدروس لكل شىء، الأمر الذى كان منسيا من قبل، ويمثل أحد عناصر انكسارة ٦٧.





« ١٠ »

الصيد الثالث

كان الصيد الثانى ثمينا لاشك، فقد تم اقتناصه واقفا، ولايقف إلا القناص، معنى ذلك أن الموقع المقابل فقد أحد قناصيه، ولعله قناصه الوحيد. ومع ذلك عندها أدركت ما أتعرض له من خطر، فكل جنود موقعنا دائما خلف التحصينات والتمويهات إلا أنا والقناص الآخر الذى لم يكن كثير التوفيق لضعفه التكتيكى. حقًا كانت حركتى واسعة وحريتى مطلقة، وكان كل أفراد كتيبتى يعتزون بى، لكن هذه الحركة تجعلنى مكشوفا للعدو كثيرا، وتعرضنى للقتل فى لحظة. لم أستسلم للخوف بل تماديت أزرع الموقع جيئة وذهابا، وأحيانا كنت أقطع فى اليوم عدة كيلو مترات، بينما كل الجنود الآخرين كامنون لايكادون يعرفون من الموقع إلا مواضع أقدامهم ومجالا محدودا للحركة. وأمام هذا الصيد الثانى لجندى إسرائيلى قناص أدركت أن الصيد الأول كان فرد استطلاع فى مخبأ لايمكن أن يبرز منه إلا شطر من رأسه. سألت نفسى ياترى ماذا سيكون الصيد الثالث، الذى أبحث عنه فى كل تحركاتى الآن.

أحسست بحركة غير عادية فى الضفة الشرقية. صوت بلدوزرات تبدأ مع الخيوط الأولى لضوء الصباح، وعندما يتصادف إطلاق نيران مصرية عليهم يتوقف العمل، ثم يعود بعد وقف إطلاق النار. من هنا بدأت أراقب

الموقع الإسرائيلى مع إشراقة كل فجر. ومن هنا كنت ألقى كل يوم تحية الصباح على قناة السويس، هذه القناة ذات التاريخ المثير والتى تمثل مانعا لعبور كلا الجيشين نحو الآخر، مع أن الجانب المصرى كنا نظن أحيانا مع الكثافة غير المعقولة لنيران المدفعية الإسرائيلية أنها تغطية لهجوم إسرائيلى على موقعنا. أنا شخصيا كنت أستبعد ذلك. إنه إحساس شخصى، فالقناة مانع إجبارى يوقف الجيش الإسرائيلى عند ضفته الشرقية لأنه يمتلئ بالرعب من مواجهة المصريين فى كثافتهم السكانية، وفى أرضهم الزراعية الكثيفة المعمورة، بينما هو مكشوف فى سيناء لكنه يسيطر على كل ماحوله بشبكات من الحصون والاتصالات والاستطلاع متعدد الألوان. كل هذه التأملات أثارتها فى نفسى البلدوزورات الإسرائيلية، التى تدعم خط بارليف وتحصيناته. إن إسرائيل فى موقف دفاعى محض ولاتقدر على عبور قناة السويس ولو أرادت. ومما لاشك فيه أن عبور الإسرائيليين من الثغرة فى حرب أكتوبر ٧٣ كان مغامرة محسوبة لحفظ ماء الوجه اعتمادا على موافقة مصر المحتملة لوقف إطلاق النار. لقد كانت الثغرة لصالح مصر، وجعلت إسرائيل تجلس على مائدة المفاوضات بعد أن رفعتها الثغرة إلى مستوى يقرب من الندية مع الجانب المصرى المنتصر.

تلك البلدوزورات اللعينة جعلتنى آمل بسهولة فى تحقيق الصيد الثالث، والتأمل فى نفس الوقت فى طبيعة القناة. الجانب المصرى يتحرك على مستوى رد الفعل والهجوم والحفظ، ولا أقول الدفاع، ويواجه العمل الدفاعى الإسرائيلى المدروس بدراسات مضادة. لقد مثلت القناة هدنة إجبارية على الجانبين، فالجانب المصرى أيضا لايستطيع العبور لأنه لم يكمل إعادة تشكيل الجيش المصرى وتدريباته على العبور، لكنه الجانب المرشح لعبور القناة كجيش، كما يعبرها اليوم وفى كل يوم أفراد منه فى مهام استطلاعية تارة وانتحارية تارة أخرى. لقد ظلموا القناة. إنها مانع ضد عبور إسرائيلى،

وخط دفاع مصرى، وهى الآن هدنة تكتيكية لمصر حتى تتم إعداد جيشها، وهدنه استراتيجية لإسرائيل حتى تدعم دفاعها، وتثبت أقدامها فى سيناء، ولكن حرب الاستنزاف تهدد تلك الاستراتيجية الإسرائيلية، واقتناص كل جندى إسرائيلى على يدىّ ـ كما آمنت ـ يفقد إسرائيل فرصتها الدفاعية وآمالها فى الاستمرار بسيناء.

واظبت على الاستيقاظ المبكر، ومطاردة أصوات البلدوزورات، لعلى أرى أحدهم وأصطاد قائده. وفى أحد الأيام من موقع لى خفى، أخذت زاوية حادة (٤٠° ـ ٥٠°) من جهة محطة الديفرسوار نحو الشمال الشرقى، حيث أحسست فى قوة بصوت بلدوزر بطىء. كان الصوت يرتفع بين الحين والحين وكأن البلدوزر يقترب. وفجأة بدأت تظهر كالضوء المتقطع أجزاء من كابينة البلدوزر. لقد كان البلدوزر يحمل أتربة من الخلف ويلقى بها إلى الأمام بجرافته المتحركة. هكذا أحسست. ظللت فى صبر وبحركة بندولية من اليسار لليمين ومن اليمين لليسار لعلى أرى مساحة أكبر من كابينة السائق.

وبالفعل استطعت أن أرى الجزء الأعلى من السائق خلال تحركه للخلف منحنيا تحت الدواسة فى محاولة لإخفاء جسمه، وكلما اقترب البلدوزر من خط بارليف ازداد التمويه والاختباء حتى لايكشفه أحد. حقا أى رعب يعيشونه! لقد تكرر هذا المشهد ١٢ مرة، خلالها حددت كيفية ضربه. وبرغم أن حركته بطيئة قررت ضربه فى حالة ثبات لضمان الإصابة مائة فى المائة، ولاسيما أنه فى كل مرة كان يثبت فى مكانه بعض الثوانى لتفريغ التراب، وبالفعل استثمرت وقفته ووضعت جانبه المواجه لى تحت الصليبة، وضربته فى مقتل.

كان بينى وبين أقرب ملجأ ٢٠٠ متر، وبينى وبين محطة الديفرسوار المدمرة بالصواريخ ٥٠ مترا. قررت عدم الاختباء فى المحطة، وطفقت أجرى

كالطير نحو الملجأ، متوقعا انهمار الضرب فوقى وفوق الموقع كله ردا على عملية القنص. لكن الساعة المبكرة حمتنى إلى حد كبير. فالتراشق على الجانبين من الصحيح أنه لايتوقف قط، إلا أنه فى الصباح محدود جداً، فالجيوش جيوش، والحرب حرب، إلا أن الجنود بشر، وهذه الساعة ليست ساعة القدرة القتالية الكاملة. كان هناك رد إسرائيلى ليس بالقوة المعتادة بعد كل قنص، لكنها ليست القوة المعتادة فى سكون خيوط الضوء الأولى للصباح. تنبأ زملائى بقيامى بعملية قنص أمام كثافة للنار لم يعتادوها فى هذه الساعة الصباحية المبكرة.

لقد أدى نجاحى فى اقتناص الفريسة الثالثة إلى نوع جديد عندى من الثقة. ليست الثقة فى النفس التى تتجاوز الخوف وتدفع إلى الشجاعة، وإنما الثقة فى قدرتى على التفوق على الإسرائيليين بكشف تمويههم واختراق أساليبهم فى التخفى. لقد كسرت حاجز الثقة عندهم وسور الأمان الذى يعتصمون به. صحيح لم أقتل الآن إلا فردا واحدا، لكنى أعلم مدى أهمية الفرد عندهم من ناحية، ومدى الرعب الذى يبثه قتل أحدهم برغم عظمة تحصيناتهم، وبرغم الأمن الذى يدعى قادتهم توفيره لهم. إن قتل فرد منهم ينتشر فى صفوفهم فزعا لا رادّ له.

لم أنم ليلتها، وكيف أنام وأنا ملىء بالإثارة. وعدم النوم أفضل من النوم على الجبهة، فلم أنم مدتها ليلة واحدة نوما عميقا أو خاليا من الكوابيس، وأحلام مليئة بالقذائف، والبحث عن صيد إسرائيلى وسط جحيم من نارهم.

بدأت لونا من اللعب بعد ذلك لاستفزاز الإسرائيليين، وتوصيل رسائل لهم. فكثرة تحركى بحثا عن صيد رسم فى خيالى كل مواقعهم الاستطلاعية، فكنت كلما مررت على موقع استطلاعى أطلقت خبط عشواء

إحدى رصاصاتى الحارقة الخارقة. بالطبع لم أكن فى هذه الحالة أقتنص أحدا لعدم ظهور أحد، لكننى كنت أقول لهم نحن نعلم أن لكم موقعا استطلاعيا، حيث تسقط الرصاصة ذات البريق النارى والقدرة علي الاختراق الصاخب اللهب. إنه استفزاز يثير الفزع والأعصاب، وكان دائما رد الفعل كثافة من النيران. أخطرنى قائد الفصيلة بأنه تلقى إشارة من القيادة تقول «خلُّوا نوار يهدِّى شوية».

المهم بعد الصيد الثالث ظهر تمويه إسرائيلى جديد بعد التمويه بستائر الخيش. لقد غطوا الخنادق بالشباك التى تغطى بها المدافع والمعدات الضخمة. وكانت أكثر وسائل التمويه غباءً. لماذا؟ هذا موضوع الفصل القادم.





« ١١ »

لعبة القط والفأر

كانت تغطية خط الخنادق والمخابئ بالشباك وسيلة تمويه ذات فائدة جزئية تخلو من الحنكة ومن تقدير قوة ملاحظة الجندى المصرى. فمثلا، القناصون لايستطيعون العمل دون أن يبرزوا رءوسهم، وإذا أبرزوها تبرز الشبكة معها، فيصبح وسط سكون الشباك الملقاة على خط الأفق منطقة متحركة تبرز وتهبط. وهكذا جاء الصيد الرابع ثمينا. إنه قناص إسرائيلى آخر. ففى أحد الأيام كان هناك قناص إسرائيلى يسير منحنيا تحت الشباك، وفى نقطة أراد أن يستطلع فأبرز رأسه، فظهر جزء من هذه الرأس، بل أيضا أطراف كتفيه حاملة فوقها الشباك. لقد تحولت حركة خطوط الشبكة إلى ريشة ترسم تضاريس أجزاء الجسم التى تدفعها. فضلا عن ذلك كانت الشمس الغاربة مازالت تعلو السماء ورائى وأسقطت بعضاً من أشعتها الذهبية على خوذة القناص وعلى الأجزاء المعدنية من سلاحه، فبدا بريق المعدن واضحا.

لم يكن هناك وقت للتفكير. صوبت بندقيتى ضابطا زاوية الضرب والصليبة، التى رسمت المصير القاتل على رأس القناص الإسرائيلى. ضغطت على الزناد. وكان القنص الرابع، والاحتفال المعتاد من مدفعية العدو وصواريخه، وصب جام غضبه المبهج.

وهكذا بدأت، أو قل استمرت، لعبة القط والفأر بين الفتى القناص والموقع الإسرائيلى. الإسرائيليون بعد كل عملية قنص يغيرون أساليب التمويه بإضافات جديدة، وعلى الفتى القناص أن يفك الشفرة بمعونة الفتى الفنان الذى اقتصر دوره الفنى الآن على تحويل الفن إلى علم يضاف إلى علم القنص فيحقق قدرا من نجاح، وكما ذكرت من قبل: إن الإسرائيليين يصلحون أى خلل يصيب تحصيناتهم قبل مرور ٢٤ ساعة، وهم أيضا يُغَيِّرون وسائل التمويه كلما اكتشفوا خللا فى التمويه المتبع، وللأسف لم يكن الجانب المصرى هكذا برغم التقدم الكبير الذى أحرزه، فأحيانا تبدد القنابل الإسرائيلية شطرا من ساترنا الترابى، فيظل ثلمة أو ثغرة تكشف تحركات جنودنا فى تلك النقاط، ولايكاد يتم سد الثغرة إلا بعد سقوط ضحايا. فضلا عن أن تشييد خط بارليف عاليا، أعطى العدو ميزة استطلاعية.

من هنا كان الفتى الفنان المرهف الحس والرؤية يسرع فى فك شفرة التمويه، فيطلق الفتى القناص رصاصاته القاتلة. وكان تصور الفتى الفنان أن عمل الفتى القناص فيه حماية كبرى لجنودنا الذين قد يتعرضون للقنص الإسرائيلى، فاصطياد اثنين من قناصيهم، سوف يصيب هؤلاء القناصين بالذعر، وسوف يضع هذا أمامهم العقبات، وآفة القناص أو العقبة الكبرى فى طريقه هي الخوف الذى يحول بين يديه وبين الثبات، فالانحراف بعض المليمتر يفسد المهمة. على الأقل هذا ما كنت أعرفه عن بندقيتى الروسية الصنع.

وبهذه المناسبة أحب أن أتحدث عن تلك البندقية: إنها بندقية تطلق الرصاص طلقة طلقة، أى إنها لاتطلق دفعات. وعيبها طول ماسورة البندقية، وقصر أنبوبة التلسكوب، الذى تعكس عدسته الضوء. وهذا عيب قاتل. وقد تم للخبراء المصريين تطويرها، حيث أنجزوا تقصير ماسورة

البندقية، وتطويل أنبوبة التلسكوب كى توجد بعيدا عن فوهتها العدسة، فلم تعد تضايق أو تهدد بخطر عكس الضوء. ومع ذلك حتى آخر لحظة ظللت أعمل ببندقيتى الأولى غير المطورة حتى فى ماسكها الخشبى غير المريح والذى تم تحسينه فى النموذج المصرى المطور. المهم حسب تصورى عن بندقيتى، فإن التلسكوب حساس جدا، وفيه بؤرة اتجاه وبؤرة ارتفاع. الأولى تحدد اتجاه زاوية التلسكوب وزاوية الهدف للتواؤم مع حركته إذا كان متحركا، لضبط التلسكوب مع الحركة، مثلا من اليسار إلى اليمين، أو العكس، أو بزاوية ميل من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى .. إلخ، أما الثانية فهى تحدد المسافة حيث يتم ضبط البؤرة مثلا على رقم ٣٠٠ إذا كانت المسافة ٣٠٠ متر. ومعنى ذلك أن وقوع أى اهتزاز أو صدمة للسلاح تحدث خللا فى ضبط التلسكوب، الذى تصل مدة إعادة ضبطه إلى عدة أيام.

نعود للعبة القط والفأر إذ اكتشفوا عدم كفاية التمويه بالشباك. لقد أحضروا أشكالا من الخشب وغيره من المخلفات وألقوها على حواف الخنادق، ثم ألقوا الشبكة فوقها، وهذا يكسر خط الأفق، بمعنى ثبات ذلك الخط فى حالة سير الإنسان بموازاته بفضل تلك العشوائيات. بهذا أصبح المشهد ثابتا، وصار التمويه هكذا يعد صالحا وجيدا، ومع ذلك وقع الصيد الخامس وتم صيده تحت تلك الشباك المثبتة للرؤية. وكيفية انقضاضى عليه يرجع فضله للشمس عندما تقع وراء خط الأفق المتكسر الثابت، فإن أية حركة لإنسان تفصل بين ذلك الخط وضوء الشمس بشبح أقرب إلى خيال الظل، لكنه يلقى بظله إلى الخلف. وقد رأيت هذا الشبح كامل الشكل والمعالم على مسافة ١٣٠ ـ ١٤٠ مترا، أى مسافة قريبة جدا، والتلسكوب يكبر ويقرب، فأطلقت رصاصتى القاتلة واختفى الشبح إلى الأبد بسقوط صاحبه صريعا، وكان هذا الصيد الخامس. لم أدر كيف أقدم الشكر إلى

الشمس وخالقها، وعلمت لماذا اعتبرها الفراعنة رمزا للخالق سواء حمل اسم رع أو آمون أو آتون، فحيث كان اسم المعبود، فثمّ أسماء الله.

وهكذا أدركوا فشل هذا التمويه، وحمل الفأر الإسرائيلى إلى خط الأفق أعدادا كبيرة من البراميل والصفائح (التى تشبه صفائح الجبن الكبيرة)، وكلها مثقوبة من أعلاها وأسفلها بجانب عدد من الصناديق الخشبية التى تشبه صناديق زجاجات المياه الغازية، بجانب كثير من الأدوات المحطمة، وألقوا بكل ذلك تحت الشباك. وكان الهدف من ذلك نظريا فى غاية الذكاء حيث يستطيع أن يطل جنود استطلاعهم وقناصتهم وضباطهم على مواقعنا من فتحة الصفيحة أو البرميل الملاصقة للخنادق والملاجئ دون أن يلحظهم أحد، وكان على القط أن يهزم ذكاء الفأر.

لقد تعرفت على وظيفة الصفائح والبراميل من نظرية التيار الكهربائى المتقطع، وهى نظرية لها مثيل فى الفن وعلاقته بخداع البصر. لقد لاحظت بالبيروسكوب أن فوهات البراميل والصفائح المواجهة لى تبدو مثل النوافذ المفتوحة البعيدة التى لايمكن تمييز شىء خلالها، لكنها على الأقل تبدو مفتوحة تكاد تمثل إطارا من نور ضبابى، وفجأة كانت هذه الفوهات تتحول إلى مربعات أو دوائر سوداء. وفى الحال فككت الشفرة: إن الضوء الباهت الضبابى حالة طبيعية، أما عندما يتحول إلى بقعة سوداء فهناك جسم يعترضه من الفوهة أو الفتحة الأخرى للصفيحة أو البرميل. لقد أدركت الحيلة، وبدأت إجراءات القنص السادس.

أعجبتنى فكرة التمويه، فالرائى غير ثاقب الملاحظة وغير العارف بمداعبات الفأر وحيله لن يرى إلا براميل وصفائح قديمة ملقاة، ولن يدرك دقة صفّها وتوجيهها بين ركام من الأخشاب والمخلفات. إنه فقط خط متكسّر للأفق من المخلفات الصلبة، التى تنتمى إلى القمامة، وبرغم دقة

أوضاعها فلن يرى القط إلا عشوائيتها. وهكذا لاحظت الثقوب السوداء حين تسودّ. لقد ثبّت فرد إسرائيلى مساحة يتحرك فى داخلها حتى لايراه أحد بينما هو يرى ويراقب. لكنه كلما ابتعد عن برميله أضاءت فتحته، وكلما التصق به أظلمت. لقد لاحظت استمرار الظلام لفوّهة أحد البراميل بين الحين والحين حوالى نصف الساعة إلى الساعة.

وبالتدقيق رأيت الهالة السوداء ليست سوداء كاملة السواد بل يتخللها بعض الضوء مما مكننى من أن أرى يد الفرد الإسرائيلى وسلاحه وبعض حركاته مثل الرسوم المتحركة خلف ستارة خيال الظل. لا أظن أن الذكاء الإسرائيلى له قدرة على فهم علاقة المصرى بالشمس وضوئها. إن فى العقل الباطن للطفل المصرى القروى علاقة حميمة مع الضوء والشمس تطفو إلى العقل الظاهر للفتى الفنان المتخصص فى ذلك بحكم الدراسة التى يتفوق فيها بسبب ميراث فرعونى شمسى. وضبطت تلسكوب البندقية على سواد الثقب الأسود المطمئن وأرديته قتيلا، فانزاح السواد عن الفوّهة، وابيضّ وجه البرميل، وكان الصيد السادس.

وبعد الصيد السادس تطور التمويه الإسرائيلى كثيرا بجانب الحذر من ناحيتهم، ومر وقت طويل تعذر فيه الصيد أو ظهور أحدهم، واعترانى الملل من طول البحث عبثا عن قنص المستحيل. وكان علىّ أن أُبحث عن وسيلة أو تطوير لأساليبى، لأننى أعرف أنهم هناك، لكنى لا أراهم. فماذا أفعل؟ ذلك هو السؤال.





«١٢»

أزهار الملل

لقد تمت ترقيتى إلى درجة عريف، وأصبحت مجندا بشريطين، أى أننى أوغلت فى سماوات الهيراركية على مستوى الجنود، بجانب التميز الذى نلته كقناص، حتى إن الزملاء كانوا يهتمون بحياتى السابقة على التجنيد. كانت قد ظهرت لى صورة فى الجرائد عندما كنت طالبا، وكانوا يتحدثون مع نشر الصورة عن موهبتى الفنية، ظهرتُ فى التليفزيون عدة مرات بعد التخرج، أيضا، شاع على مستوى البلد خبر حصولى على جائزة عالمية، والمفاجأة أن جميع زملائى مضوا إلى ذاكرتهم يذكروننى بكل ذلك. احتفاء من الزملاء يجعل الإنسان ينتشى، لأن ذلك أرقى أنواع التكريم، وهو يفوق كل الأوسمة والترقيات والجوائز. هكذا، لشهرتى أصبحت قاسما مشتركا بين الزملاء، وتوثقت علاقتى بكثير منهم من أصغر جندى إلى أعظم قائد، ومازلت إلى اليوم، ونحن فى عام ٢٠٠٠ أثناء تحرير هذه الذكريات، تربطنى بهم أوثق الوشائج، ولايمكن وصف فرحتى بل وفخارى عندما كنت فى إسبانيا فى أكتوبر ١٩٧٣ أتمتع بمنحة لدراسة الفن، عندما وصلتنى رسالة جماعية من كتيبتى بعد عبورها، وأرفقوا بالرسالة صورة لهم فى سيناء حول حطام طائرة إسرائيلية. إن لزمالة السلاح عمق لاينفد.

ولم يكن قناصة الأفراد وحدهم من يتمتعون بالشهرة، بل أيضا كان



صورة زملاء أحمد نوار القناص أرسلوها من قلب سيناء وهو بأسبانيا للدراسة، بعد عبورهم قناة السويس فى أكتوبر ١٩٧٣م ويظهر خلفهم حطام طائرة إسرائيلية، وتظهر فرحة النصر عليهم جميعاً .

هناك قناصة الدبابات، وكل القوات المسلحة تذكر الشهير الأشهر عبد العاطى، الذى دمر عددا كبيرا من دبابات العدو فى عمليات قنص متميزة. ولعدم وجود عمل قتالى للقناصين سوى تحسس الأهداف، واكتشاف اللحظة المناسبة، والمكان الأدق لاقتناص تلك الأهداف، فإن الملل ينبت فى داخلهم وينمو حتى يزهر وتتفتح أزهاره، عندما يعز الهدف ويصعب العثور عليه، أو قل يستحيل. وهذا ما أصابنى بشدة وعلى سبيل المثال بعد الصيد الخامس عشر، تطوعت مع زميلى القناص فى مهمة مع ثلاثة من قناصى الدبابات، هم يقتنصون الدبابات وأنا أترقب بروز أحد أفرادها أو قادتها لاقتناصه، بينما يفعل زميلى نفس الشىء، فيتكفل كل منا بأفراد دبابة. فشلت المهمة، وهذا هو الغالب على مهام القنص، فهى تحتاج للصبر والتكرار مرارا حتى تتاح الفرصة، والفرصة هنا لحظة لاتتجاوز الثوانى. أيضا بينما أمضغ أزهار الملل وسط الروتين اليومى، الذى تتم ممارسته على عزف انفجارات الدانات والقنابل والصواريخ على الجانبين، خطر ببالى يوماً أن أقتنص دبابة من دباباتهم التى تعلو ساترهم الترابى فى حالة نشاط ومبادرة. كنا نطلق على الدبابات فى هذا الوضع «الدبابات راكبة المواقع». هذا الوضع يعطى الدبابات المبادرة، فلا يمكن اصطيادها بالمدافع المضادة للدبابات، حيث يتم إسكات المدفع من طرف الدبابات الراكبة، وذلك قبل إطلاقه. هكذا خطر ببالى فى ظروف تعذر حصولى على أهداف راجلة للقنص أن أقتنص قائد دبابة راكبة بمدفع رشاش، وبالفعل ظهر نصف جسمى الأعلى فوق ساترنا الترابى فى مجازفة قاتلة، ووجهت المدفع نحو هدفه. قبل الضغط على الزناد تساقطت دانات الدبابات من حولى كالمطر. ألقيت بنفسى خلف الساتر الترابى أكاد أدفن نفسى فى التراب غير موقن بنجاتى. أدركت أنهم يطلقون النار فى سرعة خاطفة بمجرد ظهور أية ماسورة سلاح، وقد مكنهم ركوبهم لموقعنا من اكتشاف أية همسة لماسورة

سلاح. سيتكرر نفس الخطر لى بعد قليل، وسأنجو أيضا بمعجزة، لأن فى العمر بقية، ليس عمرى فقط ولكن معه عمر قائد الدبابة الإسرائيلية الذى أردت رشه بمدفعى، حيث إن بعض قادة دباباتهم أحيانا يبرزون من قمة الدبابة للاحظة تأثير ضربهم المباشر على الموقع المصرى. لقد كانت مجازفة قائد الدبابة الإسرائيلية محسوبة، أما مجازفتى فكانت تهورا، أو قل هى مجازفة انتحارية، وهى نفس المجازفات التى أدت إلى انتصارنا فى حرب أكتوبر. كما أدت إلى انتصار المقاومة اللبنانية أخيرا على إسرائيل: إنه التهور الذى يدعم الحسابات وليس العكس.

عدت بعد ذلك أمضغ أزهار الملل التى طالما مضغها بصبر جنودنا على الجبهة يسبقون الزمن بخيالهم ويعبرون فرادى القناة بين الحين والحين فى مهام متهورة، أقصد انتحارية، حتى يسقط الملل عنهم نهائيا وتبتلعه مياه القناة عندما يعبر الجيش كله، أقصد بعض مصر يعبر قناته إلى بعض مصر الآخر فى سيناء. إن مئات المعارك الصغيرة تؤدى إلى المعركة الكبيرة، ليس بهدف الحرب والقتل، وإنما بهدف إجبار العدو على التسليم بحقوقنا على موائد المفاوضات. هذا ماكرره الرئيس حسنى مبارك فى حنكة القائد العسكرى والسياسى معا.

مضيت أبحث عن هدف جديد بأسلوب مختلف. لابد أن أراقب الموقع الإسرائيلى من بعيد وبزوايا حادة تكتشف شرائح جانبية، عبر اختراق الرؤية للجوانب عن بعد بالبيروسكوب، مع ضبطه على زوايا حادة. وتفتّح بهذا الأمل فى صيد جديد. وقد حدث وإنما بشكل طريف. لقد نظرت بزاوية ٣٠° ـ ٤٠° لأحاول بعيدا عن الرؤية المباشرة (التى لاترى إلا الحصون) رؤية اختراقية لبعض الجوانب حيث تظهر بعض الأعماق العمودية على سطح قناة السويس من الموقع، ويظهر لى فجأة جندى عار كما ولدته أمه.

لقد كان يستحم أمام باب الملجأ. لقد رأيت نصفه الأعلى ينزح الماء من إناء بكوز ويسكبه على جسمه. فى وضعه هذا لايمكن رؤيته بالزوايا العمودية بل ولاحتى بالزوايا الحادة المتسعة (٦٠° ـ ٧٠°)، بل فقط بأضيق زاوية حادة ممكنة للرؤية. لم تستطع رصاصتى القناصة انتظاره حتى ينتهى من الاستحمام لتقول له «نعيماً!»، لأنه لو انتهى لابتلعه الملجأ، وضاع هدف ثمين انتظرته بشوق طال. قلت له على لسان رصاصتى «نعيما مقدما»، وقد سقط صريعا، وسقط الكوز من يده، وسال الماء كما أظن مع دمه لتخفيف ذلك الدم الثقيل على قلب تراب سيناء الحبيبة. كنت أقف على بعد ٣٠٠ متر من حمامه الدامى، وعلى بعد ١٨٠ مترا من أقرب ملجأ لى. وانطلقت أجرى وانهمر الضرب الإسرائيلى من على طول خط المواجهة بكل أنواع الأسلحة، فالمواقع العسكرية على الطرفين بانوراميه أسرية، بمعنى أن خبر سقوط جندى صريع ينتشر فى ثوان محدودة فى كل بقاع الموقع، ولديهم تعليمات، فيعرفون فى الحال مايعملون. لقد زرعت داناتهم وقنابلهم كل مكان حتى إننى أحسست بها تزرع فى جسمى، ويصل صوت دانات الهاون إلى أذنى فى صفير يدوى منذ خروجها من ماسورة مدافعها. كان موضع سقوط بعض القنابل على بعد يتجاوز بقليل ستة أمتار من مواضع طيران قدمى فى وسط عاصفة من الدخان الناجم عن الانفجارات. ألقيت نفسى فى مكان منخفض أحدثته إحدى دباباتنا حافرا لجسمى وبندقيتى مكانا فى الرمل، أو لعل ذلك كان إحساسى فى تلك اللحظة، وهو إحساس حلاوة الروح والرغبة فى النجاة، لأنه لو حدث فعلا ودفنت نفسى وسلاحى فى الرمال، وسقطت فوقى قنبلة فلن أنجو، وإنما أكون قد حفرت قبرى بنفسى، ولا بأس فى ذلك، فمن يملك رفاهية اختيار قبره وحفره لنفسه بنفسه قبل أن يغادر سطح أرض الوطن إلى ماتحت تلك الأرض. إن كل مواطن يضمن بالفعل مهما كان موقعه ووجاهته أو فقره حوالى مترين مكعبين من أرض

الوطن، سيصيران بيتا له إلى قيام الساعة: القبر. إنها ملكية مؤجلة لكنها مضمونة وأكيدة مائة فى المائة حينما يحين الحين، ولكن لم يحن حينى، وهدأ الضرب بعد حوالى ٢٠ دقيقة.

كان زملائى فى قلق قاتل ينتظروننى فى الموقع، وقد فقدوا أى أمل فى نجاتى، ولاسيما أننى لم أعد إلى أى ملجأ كالمعتاد بعد كل قنص لى. ترقبوا انتهاء الضرب لجمع فتات جثتى ودفنها، لأن ذلك كان الاحتمال الوحيد أمام كثافة الغيظ، أقصد القذف الإسرائيلى، الذى كاد يفقد الإحساس بوجود قناصة مصريين على الضفة الأخرى بعد ما اتخذ من احتياطات وتمويهات، وبعد مرور أكثر من عدة أسابيع متطاولة دون نجاح لنا فى قنص أحد من أفراده. ما أن هدأ الضرب حتى جريت إلى أقرب ملجأ. استقبلونى مندهشين، وكأننى شبح لميت أو أننى لست حقيقيا. إنها لحظات من المشاعر والتوقعات لايمكن وصفها. أنا نفسى برغم نجاتى لم أكن موقنا بصحة ذلك. لقد كان الصيد السابع عندى مثل الابن الأول الذى يجىء بعد يأس من الإنجاب، وكان فيما أظن هو إجهاض لهذا الابن المنتظر بعد لأى عند الجانب الإسرائيلى، فكان رد فعله قاسيا منفلت الحدود شديد العنف والكثافة، حتى إنهم سدوا على طريق العودة إلى أحد الملاجئ، كما أننى أعتقد أن بدء إطلاق النار من ناحيتهم تم بعد سقوط صيدى ببضع ثوان فقط. لقد أحسست فى تلك اللحظات بفظاعة الحرب وقسوتها التى تُحتمل فيما وراء القدرة على الاحتمال، بل فيما وراء الحياة. لقد عشت الموت دقائق، وتعجبت من جسمى المحتضن للرمال تطارده القنابل فيراوغها ويزودها عنه بجاذبية طاردة ومضادة لاتصدق، بسبب أن فى العمر بقية.

حقا إن الضرب على الجبهة كان «عمال على بطال» لايكاد يتوقف ٢٤ ساعة، وكان أحيانا يدوم متصلا ثمانى ساعات. إنه ضرب فى المطلق، لكن

كانت له قوانينه من الناحيتين، حيث نحسن، كما يحسنون، استقباله فى ملاجئنا، وبكثير من الحذر والحسابات، لكن الضرب كرد فعل لعمل معاد قد يختلف، فهو برغم انتشاره يركز على النقطة التى صدر منها العمل المعادى، وفى هذه الحالة كان الموقع الذى تم منه قنص الفرد الإسرائيلى أى موقعى واتجاه فرارى. وهو ضرب يمتاز بأكبر قدر ممكن من تنوع الأسلحة، بعكس الضرب الديمومى أو الدائم مثل دوام تدفق المياه فى نهر، فهو يتميز بتخصص الأسلحة، فهناك مثلا تراشق للتسلية بالأسلحة الخفيفة تتخلله بين الحين والحين دقات دانات هاون تسقط لتقوم بالدور الإيقاعى الذى يقوم به الطبل فى الموسيقى، لكن الإيقاع هنا إيقاع قاتل يهدف لإيقاع أكبر قدر ممكن من الخسائر لأن دانة الهاون مثل القدر المفاجئ تنزل من السماء دون توقع، فهى تسير فى نصف دائرة، إذ ترتفع إلى أعلى عند خروجها من ماسورة المدفع، وتستمر فى الارتفاع راسمة قوسا بعيد المدى ثم يهبط خط القوس بشكل مفاجئ بنفس طريقة صعوده لتتلقى المواقع القنبلة هابطة من السماء دون قدرة على الهرب منها، فتضمن هلاك من يستقبلها من أفراد عاديين أو عسكريين، فهى مثلا قد تصيب مجتمعا آمنا يعيش كامنا وراء جبل على السفوح.

إن دانة الهاون هى السلاح الذى يفاجئك وأنت تأكل، فلا يحرمك من لذة الأكل مرة بل إلى الأبد، أو وأنت تزرع فيحرث بجسمك الأرض، أو أنت تمارس أى عمل فيوقفك ممزقا لك أنت وآلة عملك. إنها كما يقولون القضاء المستعجل. وفى مواجهة ذلك تنشأ عند المقاتل حواس لاتعمل عند الآخرين، فها نحن نحس بطيرانهم وهو فى عمق سيناء ونحدد أسرابه وأهدافها، وذلك مع ارتفاع صوته الذى يكاد يأخذ شكل مفاجأة ارتفاع صوت الموسيقى السيمفونية، كذلك بدأنا نميز بدقة نوع الدانات والقنابل والصواريخ مع اتجاهها من صوتها، وبالتالى يحدث نوع من التوجيه

والتصرف الذاتى. ولعل هذه الحواس الجديدة وراء نجاتى اللامعقولة بعد رد فعل الصيد السابع، ووراء نجاة عدد كبير غيرى من الجنود من الموت المؤكد. ومع ذلك فآلة القتل أحيانا تسبق كل الحواس والتوقعات.

وهكذا، شهدت استشهاد ملازم يقود إحدى فصائل الكتيبة، كان دائما بين جنوده يلهب حماسهم، ويصنع بأكسير شجاعته شجاعة كل الجنود. لقد خرج مرة عند ضرب مفاجئ ليكون بين جنوده وأمامهم منقذا كلما أمكن لحياتهم، وبعد توقف الضرب رأيناه قد انشطرت رأسه عن جسمه وافترقا فى مكانين بعيدين. لم أنسه حتى الآن، ولا أحسب أحدا قد نسيه من الزملاء، ولعله وحده وأمثاله من الجنود والضباط هم سبب تفوقنا الساحق على إسرائيل فى حرب أكتوبر، بل فى حرب الاستنزاف نفسها، ولعل بعض هؤلاء الأبطال لم ينل وساما لتضحيته، ودخل فى عداد الجندى المجهول، لكن الوسام الأعظم هو بقاء عملك بعد موتك وبقاء صورتك فى قلوب الناس ولو أخذت شكل عملك لا أود أن أذكر اسم هذا الملازم الفارس النبيل، حتى لا أذكّر أسرته بأحزان قد طواها الزمان، لكن تضحيته الرائعة من أجل عيون هذا الوطن، التى هى ذرات ترابه الغالى، تحملنا على تذكره وأمثاله من الفدائيين الشجعان كلما مررنا بنصب للجندى المجهول، وكلما امتلأت أيدينا بقبضة من تراب مصر الذى اختلط بأجسامهم الطاهرة، وصارت أرواحهم الشهيدة أنفاس الهواء الذى نتنسمه على ضفاف النيل، أو شواطئ البحر الأحمر رمز دمائهم التى روت الأرض والماء المالح للقناة فصار عذبا للنفوس لا للأفواه، أو شواطئ بحرنا الأبيض رمز بياض قلوبهم، أو فى فضاء صحرائنا التى تمثل مراحا لأرواحهم الخالدة بحبات رمالها عشيقة الشمس.

أخيرا، شجعنى الصيد السابع على كسر حاجز «طاقية الإخفا» التى

لبسها جنود إسرائيل متمثلة فى تحصيناتهم وتمويهاتهم، كما رفع روحى المعنوية فوزى فى مسابقة القنص على مستوى الجيش الثانى، فما شأن تلك المسابقة التى بها اكتملت ثقتى بنفسى كقناص دون أدنى شائبة فى تلك الثقة؟ هذا موضوع الفصل القادم.





«١٣»

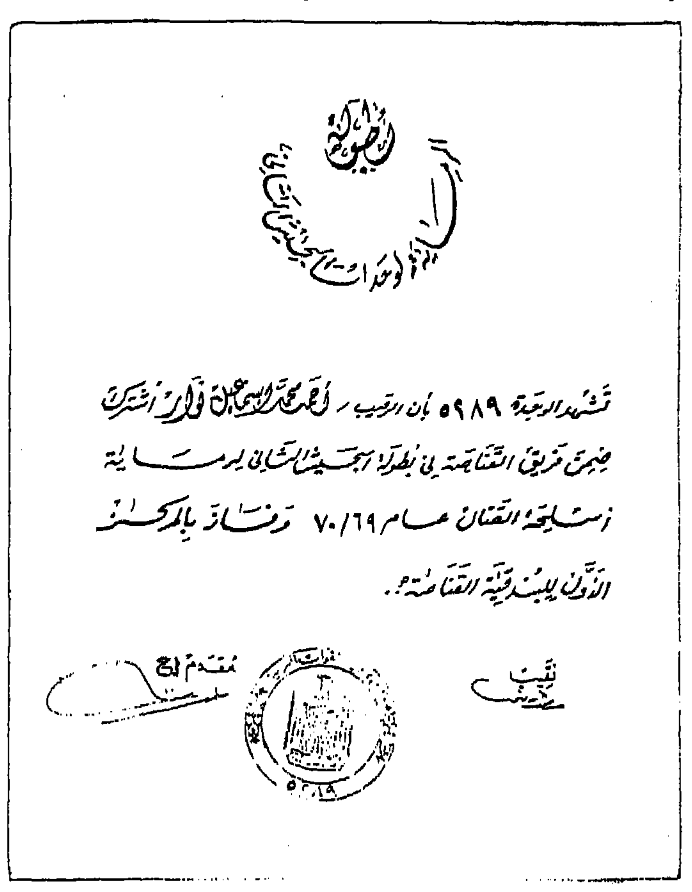
مسابقة قنص

نحن الآن نقترب من عام ١٩٦٩ حيث تم تنظيم مسابقة لاختيار القناص الأول. شارك فيها كل سلاح القناصة من أصغر جندى إلى أعلى رتبة فى السلاح من بين أفراده فى الجيش الثانى، وقد اختارت كل فرقة مجموعة تمثلها، وقد اختارونى ضمن مجموعة من القناصين تمثل الفرقة الثانية فى الجيش الثانى، وتشغل هذه الفرقة القطاع الأوسط. كان عدد المشتركين كبيرا يكاد يبلغ ٢٠٠ قناص.

كانت المسابقة تقوم على ٣ محاور رئيسة: محور التكتيك، ومحور السرعة، ومحور دقة الإصابة. وكنا نصوِّب بنادقنا على هدف يأخذ شكل وجه من الخشب أصفر اللون، أو بمعنى آخر رملىّ اللون. كان الهدف على مسافة ٣٠٠ متر. ويبدأ الفرد بالجرى حوالى (٢٠ مترا)، ثم ينبطح على الأرض متخذا موقعا، ويحدد الهدف، ويطلق عليه النار. كان الهدف مفاجئا وخاطف الظهور، يظهر لمدة أربع ثوان ويختفى. تمت جولات لاحصر لها حتى اكتملت تصفية العدد ورست المسابقة فى جولتها الأخيرة بينى وبين عميد قناص.

كانت التصفية بأن يحاول (على سبيل المناورة) أن يقتل كل منا الآخر، بأن نتواجه ثم يجرى كل منا فى اتجاه الآخر ويطلق رصاصته الأخيرة، فإن

قتلنى كسب المسابقة، وإن قتلته كسبتها . بالطبع الرصاصة سوف تعبر كُلاً منا دون أن تصيبه لأن كلانا كان ينبطح فى نهاية الجرى. وأطلق كل منا



تشهد الوحدة ٥٩٨٩ بأن الرقيب / أحمد محمد إسماعيل نوار اشترك ضمن فريق القناصة في بطولة الجيش الثاني لرماية أسلحة القناص عام ٦٩/٧٠ وفاز بالمركز الأول لبندقية القناصة.

مقدم أ.ح

نقيب

وثيقة لحصول القناص أحمد نوار على المركز الأول فى الرماية بسلاح القناصة، عام ١٩٦٩، ١٩٧٠، والمسابقة كانت على مستويات ثلاثة: (تكتيك من الحركة. دقة الإصابة على هدف متحرك عبارة عن رأس جندى على مسافة ٣٠٠م. سرعة الإصابة، اشترك فى المسابقة ٢٥٠ متسابق من خيرة قناصة الجيش الثانى بدءًا من رتبة جندى حتى رتبة عميد، وجاءت التصفية النهائية بين نوار وعميد قناص، وما أن جاءت إشارة البدء حتى أصاب نوار هدفه فى الثانية الأولى، وأصاب الآخر هدفه فى الثانية الثالثة.

رصاصته. وفزت حيث انطلقت رصاصتى خلال ثانيتين، بينما انطلقت رصاصته خلال ثلاث ثوان وبعض الثانية. فوزى فى المسابقة جعلنى واثقا من النجاح فى كسر حواجز التمويهات والتحصينات الإسرائيلية، والوصول إلى رقم قياسى فى القنص. ألست القناص الأول الفائز على مستوى الجيش الثانى كله؟ لاعذر لى إن لم أنجح سريعا فى الوصول إلى الفريسة الثامنة!

عدت إلى موقعى بكل تصميم. وكانت احتفالات التراشق مستمرة. كانت أسلحتنا الثقيلة على بعد ٥-١٠ كيلو مترات من القناة حتى تستطيع السقوط على الضفة الأخرى عند إطلاق داناتها وقنابلها وصواريخها. أما الدبابات فكانت تضرب من الخلف أو تركب السواتر الترابية فتضرب ضربا مباشرا. وكانت الاشتباكات القريبة بالأسلحة الخفيفة، وهنا فقط يأتى دور المشاة التى ألحقنا بها كقناصين. وبخصوص الطيران فلا اشتباك على ضفتى القناة لضيق المساحة، بمعنى أن الطيران يلقى بقذائفه ويهرب، وعند هجوم الطيران نترك الملاجئ إلى حفر برميلية حتى لاتدك الملاجئ والمخابئ فوق رءوسنا، وبالتالى تنعدم الخسائر أو تقل جدا. كذلك، وجودنا فى الحفر البرميلية يهيئنا لمساعدة الدفاع الجوى، بإطلاق بنادقنا الآلية ورشاشاتنا فى الجو لصنع ما يسمى بساتر النيران الجوى، حيث تنطلق بنادق ورشاشات مئات الجنود فتملأ رصاصاتهم السماء بسحابات نارية أو مضيئة من بعض الرصاص المضىء. هذا الساتر يصيب الطائرات الإسرائيلية بالذعر من الانقضاض على مواقعنا، وعدم اختراق الساتر النيرانى يبعد الطيار عن تحقيق هدفه وتنفيذ خطط تدميره، وفى هذه الحالة إما أن يضرب عشوائيا فلا يصيب أهدافه بدقة، أو يعود بحمولته، وفى الحالتين تفشل مهمته.

فى أغلب الأحوال كان يلقى بحمولته عشوائيا فتسقط فى قناة السويس

أو على موقعنا أو موقعه، حيث نرى مهرجانات النابالم والقنابل الحارقة. وأحيانا يتجاوز الساتر النيرانى حيث تقل كثافة نيران المدافع المضادة، وهناك يلقى بحمولته من ارتفاعات عالية.

عموما هذا هو الجو العام للجبهة بعد المسابقة، وها نحن ندخل فى عام جديد. إنه عام ١٩٦٩. ونبتعد تدريجيا عن أحزان النكسة، وكنت أتمنى أن تنتقل ثقتى فى نفسى وفى قواتنا المسلحة التى تستنزف العدو إلى ثقة شبيهة عند كل مصرى، فبعد المسابقة نزلت إجازة ٣ أيام، وكانت الإجازات مأساوية لنا فى الذهاب والإياب لارتدائنا الزى العسكرى، الذى كان يلقى استهجانا من عامة الناس فى الشارع وفى كل مكان. وبرغم تحول إعلامنا إلى شىء من الصدق بعد النكسة إلا أن أحدا لا يصدقه، وما زالت ثقة الناس منعدمة فيه، وفى قواتنا المسلحة.

وأقول هنا «شىء من الصدق» وليس «الصدق»، لأن البيانات المبالغة عن انتصاراتنا وإسقاطنا لطيارات لا حصر لها للعدو (والتى صارت مثارا للنكات بعد ظهور الحقيقة البشعة والشنيعة فى ٥ يونيو ١٩٦٧) قد انقلبت إلى العكس، فالإعلام حذر فى الحديث عن المنجزات الهائلة فى حرب الاستنزاف، ويذكر بعضها في تواضع أو على سبيل الإجمال خوفا من عدم تصديق الناس أو سخريتهم من الحقائق الجديدة. فمثلا لا ذكر واضح للعمليات الرائعة التى تقوم بها الصاعقة فى عمق سيناء خلف خطوط العدو بمشاركة متطوعين ووحدات أخرى من القوات المسلحة. كذلك ليس هناك تفاصيل عن إنجازات مدفعيتنا وصواريخنا الباحثة عن الدبابات. وإليك المثل عن أعمال القنص الرائعة على طول خط القناة. لقد قرأت مانشيت بجريدة الأخبار يقول : «تصاعد أعمال القناصة المصرية على جبهة القتال، وخاصة فى منطقة الديفرسوار فى القطاع الأوسط»»، ثم تقرأ تفاصيل

الخبر فلا يحمل من التفاصيل أكثر مما حمله المانشيت. ومع ذلك كانت الإجازات مهمة جدا برغم قلتها، وبرغم معاناة ازدراء الزى العسكرى، فعلى الأقل كل جندى وضابط تحترمه أسرته وتصدقه. وهكذا قام هؤلاء بنقل الصورة الجديدة بتفاصيلها، وكل جندى كان يحكى مغامراته ومعاناته دون مبالغة، لأن الواقع الجديد يفوق المبالغة، فلم يعلم أحد كيف تحول غيظ الجنود وألمهم بل وعارهم بسبب انكسارة ١٩٦٧ إلى ثأر شخصى، وخاصة أنهم يثقون فى القيادات مابعد ١٩٦٧، لأنهم وأنا منهم بصفة خاصة رأوا رأى العين خيانة قيادات ١٩٦٧ وخذلانهم لجنودهم وللوطن. وأى خيانة أبعد من البيانات المزورة صباح ٥ يونيو ١٩٦٧. إن الهزيمة الساحقة كانت بسبب الخيانة، والكذب على الشعب خيانة، حتى إذاعة الهزيمة على أنها انسحاب تكتيكى لقواتنا إلى خط الدفاع الثانى خيانة ثالثة. لقد عرف الناس الحقيقة من الضحايا أبنائهم الذين تعرضوا لمذبحة على أرض سيناء دون رحمة من قادتهم ومن إسرائيل معا. كما عرفوا الحقيقة من إذاعة إسرائيل والإذاعات الأجنبية. ويالهول الحقيقة!

أقول إن الشعب المصرى يبحث عن الحقيقة ويصل إليها وتدريجيا عبر أبنائه المجندين والمتطوعين والضباط، عرف الحقيقة الرائعة وبطولات حرب الاستنزاف التى لم يقدمها الإعلام أو الدارسون حتى اليوم، كما لم يفعلوا مع انكسارة ١٩٦٧، بل حرب ٦ أكتوبر نفسها، فرغم التركيز عليها لم ندرسها كما درسها الأجانب جميعا فى كل الجيوش بالعالم دراسة علمية وافية.

وهكذا انتهت المسابقة إلى تدعيم ثقتى بنفسى بشكل حازم، كما انتهت الإجازة برؤية الناس، وقد استعادوا الشطر الأعظم من الثقة بجيشهم ووطنهم، وبطولة أبنائه وجديتهم، وسلوكهم السلوك العلمى، مع مزيد من الشفافية فى الإعلام، الذى لم يتعود عليها قط حتى ذلك التاريخ.

فقط أصبحت قلوب الأهل والأصدقاء والناس مع أبنائهم على الجبهة،

الذين يعيشون عصر بطولة حقيقية، إلى حد أن نزول إجازة كان عملا بطوليا حقيقيا، فاختراق خط النار الأول والثانى للوصول إلى الإسماعيلية عمل خارق، ثم ركوب القطار الحربى المزدحم والذى يتعرض لقنابل العدو بين الحين والحين كان مخاطرة حقيقية، وفى حالة العزوف عن القطار يسعى المجند على طريق المعاهدة فى جو من الخطر بحثا عن سيارة أجرة أو أتوبيس. الإجازة يوم للسفر إلى الأهل ويوم للعودة إلى الموقع، ويوم بين الأهل.

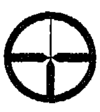
لقد كانت تستقبلنا أسرنا، وكأنها تستقبل مولودا جديدا بعد استشعار ماتعانيه من فادح الأخطار، وبالتالى فرحة الأهل باستقبالنا كانت بلسما وتقديرا فى نفس الوقت. بالنسبة لى أبى كان يحبنى حبا صامتا وقورا مثل حب سى السيد لأبنائه، فهو صموت لايعبر عن مشاعره، لكنى كنت ألمح هذا الحب تارةً على وجهه عند التقائى بهذا الوجه الحبيب دفعة واحدة مكثفة تعزفها بشرة وجهه، وتارةً أخرى عند رحيلى، حيث يتعذر علىّ توديعه لأنه يختفى بقدرة قادر عند لحظة الرحيل حتى لاينهار ويعبر عن مشاعره الثرية والمختلطة الأحاسيس بين الحب لى والخوف علىّ. أظن أنها صورة متكررة مع كل جنود حرب الاستنزاف، التى دامت ست سنوات بين السكون والانبثاق نارا حارقة للعدو من جديد مقابل استعداد بديع للاستشهاد على الجانب المصرى الراغب فى الثأر ثانيا، واستعادة أرضه أولا.

وقد كانت تحدث لى وقائع طريفة عندما خطبت فتاة ، وهى زميلة فنانة. لقد كانت تودعنى على محطة القطار، وبعد ركوبى القطار نلوح لبعضنا بالأيدى، وعندما يتحرك القطار أقفز من النافذة، لأقضى ساعة أو ساعتين أو أكثر جالسا معها فى مقهى أو غيره، ثم أبدأ البحث عن سيارة أجرة أو أوتوبيس، وتبدأ رحلة العودة القاسية إلى جبهة القتال. وكان ذلك

يكلفنى غاليا. فكثيرا ماتضيع الساعات بحثا عن سيارة إلى هناك. لم يكن يصيبنى اليأس من إيجاد وسيلة للمواصلات، فأصل إلى الموقع متأخرا، لكنى قط لم أتأخر مرة واحدة فى الوصول إلى الموقع فى نهاية الإجازة. ومن المفهوم أن المواصلات للمناطق العسكرية كانت بالغة الصعوبة. لقد كانت هذه الشقاوة مبررة، وهى ليست شقاوة خطيب مستجد، ولكنها استجابة لمشاعر رجل يحس أنه لن يعود لرؤية الفتاة التى أحبها قط بعد ذلك اليوم.

من الطريف أيضا أننا أنا وخطيبتى لم نكن نتحدث حديث العشاق، بل أنا الذى كنت أتحدث طول الوقت أو أجيب عن أسئلتها، فأنا مثل زملائى الجنود كانت قلوبنا معلقة بالجبهة وبمصائرنا هناك ومصير الوطن، فكنت أحكى لها عن حياة الجنود على خط النار وبطولاتهم، وعن الشهداء وفظائع الحرب وويلاتها، وهى من جانبها كانت تسمع بتشوق مثل طفلة تسمع عن أليسيا فى أرض العجائب. لقد كنا على الجبهة فى أرض العجائب المفزعة الرهيبة، وفى نفس الوقت كل فرد كان فخورا بنفسه وتحمله الأهوال بقدر فخره بزملائه، طبعا مع شىء من التذمر بين الحين والحين لسوء المنام والشرب والطعام، وانعدام لذيذ النوم والأحلام، التى لم تكن إلا كوابيس بالداخل تعكس كوابيس الخارج. والإنسان هو الإنسان دائما يخلط النشوة بالمعاناة، لقد كنت أشعر بالنشوة وأنا أحكى مع مئات عناصر المعاناة والفزع فى اجتياح لذاكرتى وخيالى. ومع ذلك كما تعودت فإننى لا أعمل شيئا غير محدد الهدف. كنت أعتبر خطيبتى وسيلة إعلامية رفيعة المستوى لنقل الصورة الحالية لواقعنا العسكرى للناس لمعاونتهم على تجاوز النكسة، أو ما أطلقوا عليه النكسة، وهو أبعد من هذا الاسم بكثير. وأكثر من ذلك فإن قص أشياء حياتنا لمن نحبهم أو نثق فيهم يحول أحداث الحياة من تجارب هلامية إلى وقائع محددة لها شكل وتسعى نحو هدف. بمعنى: أننى أثناء

الحكى يتحدد هدفى بدقة كجندى كما يتحدد أمامى معنى ما أعيشه من تخطيط عسكرى، هو فى الحقيقة تخطيط لمجتمع مختلف، وهذا ماكان يحدث فى الجيش أى أننى أربط بين حبكة فى السياسة وحبكة فى التخطيط، وكيف يصير السياسى حركة فعل لتنفيذ التخطيط وتحقيق أهدافه، وهذا مالايوجد فى مجتمعنا حتى اليوم، فالأمور هلامية وغير محددة عند أغلب الناس، فكأننى أحكى تجربتنا الجادة فى الجبهة، كى أوازن بينها وبين التجارب الهلامية لمجتمع لايعرف دقة التخطيط، ثم دقة ومرونة التنفيذ استجابة لمتغيرات تطرأ أو تستجد، لكنها تحت التوقع والاحتمال فى التخطيط، وتلك هى السياسة سواء فى حياة أمة أو فرد.



« ١٤ »

القنص والتطعيم

التطعيم مصطلح يشير إلى التعود على حالة الحرب، والتصرف فى تلقائية، وكأن الموت الذى يترصد الجميع ليس موجودا . وفى ظل هذه التلقائية وتبدد الخوف أحيانا نتصرف باندفاع ودون حذر ظاهر، لأن الحذر يصبح سلوكا خفيا أو قل معرفة ذاتية تحكم حتى حركات الجسم. هذا بالنسبة للأفراد القدامى فى الجبهة على الطرفين، لكن دائما كان هناك أفراد جدد عليهم قضاء فترة طويلة حتى يصيبهم الدور فى التطعيم. وكانت «زفة» أو قل «مولد» الضرب المستمر المتنوع الذخائر والأسلحة يصل إلى حالات من الهدوء تكاد تشبه الهدنة. فكثيرا ما كان الجانب المصرى يعد خططا تدميرية لمواقع العدو، وهو أمر شهدته بنفسى مرارا فى مراحل الإعداد والتنفيذ. وكثيرا فى هذه الحالة مايتم التنفيذ بالصواريخ أرض أرض وبالمدرعات العملاقة مع أسلحة أخرى. ويبدأ مهرجان الضرب فى عنف وقسوة، ثم يكون الهدوء الذى كما قلت يشبه الهدنة فى اتفاق الجنتلمان غير المتفق عليه.

وفى حالات الهدوء تلك يقل احتياط الجنود وحذرهم، ولايكادون يلتزمون بدقة التخفى واتخاذ مايلزم من احتياطات. وهكذا يبدأ ظهور الأفراد علنا من الجانبين، ولا سيما فى فترات تبدل الدوريات. وقد كانت فى هذه الحالة

تراشقات وممازحات متبادلة على هيئة كلمات ونداءات. فمثلا لكونى شاويش فصيلة ويتم نداء اسمى كثيرا على لسان أفراد الفصيلة، فقد عرف الإسرائيليون اسمى، وكانوا ينادون علىّ مقلدين جنودى، والنداء المنتظم من جنود فصيلتى لى كان عند الوجبات، فيصرخون: «شاويش نوار، جاء الطعام وتعال لتوزعه علينا»، ويسمع الإسرائيليون النداء فينادوننى «ياشاويش نوار كلتوا الفول النهارده والا لسَّه».

وفى حالات الهدوء تلك يصير سكون الليل رهيبا ومرهبا، فلا نسمع إلا صوت احتكاك الهواء بمياه القناة، وأحيانا حفيف أشجار غابة الديفرسوار المحيطة بنا، لكن المقلق حقا عبث بعض الدرافيل فى الماء عند تصادف مرورها بموازاة موقعنا بمياه القناة، حيث تنطلق نيراننا فى اتجاه الصوت، ويتم رش المياه بدنانير الرصاصات النارية، وذلك خوفا من احتمال هجوم الضفادع البشرية.

وفى إحدى حالات الهدوء النسبى تلك قمت بقنص فريستى الثامنة. إنه أحد أفراد العدو يقوم باستطلاع مكشوف. لقد أمسك هذا الجندى بنظارة مقربة مكبرة، وخرج من المخبأ يستطلع بها. لقد راقبته ثلاثة أيام، وهو يفعل نفس الشىء متماديا فى طرح الحذر والخوف. جعلته هدفا، وأطلقت نحوه الرصاصة القاتلة. بعدها عاد الجانب الإسرائيلى للحذر الشديد وراجع تمويهاته، وشبكته متكسرة خط الأفق، والتى كان يفسد تمويهها بعض الشىء، نتيجة احتراق الأشياء الهشة مثل الصناديق الخشبية بفعل النيران المصرى. طبعا تلقيت رد الفعل الغاضب من النيران الإسرائيلية، لكن فى هذه المرة الثامنة لم أعد أخشاه أو أخشى الموت، ليس من فرط الشجاعة (لا أنكر أننى شجاع!)، ولكن من فرط إحساس غريب بأن جسمى محصن ضد الموت، مهما تعددت مصادر النيران القاتلة، وتمادت فى الحرق والتدمير. إنه التعود أو قل التطعيم.

وعاد الحذر الإسرائيلى، وزودوا خط تمويههم بشكل متجدد بالخشب والصفائح والمكعبات وخلافه، وذلك كلما دمرت النيران المصرية بعضها. وجاء رقم ٩ بعد زمن طويل وصبر. لقد لاحظت رأسا تحت الشبكة ترتدى خوذة، وأطلقت الرصاصة فاصطدمت بالخوذة وانحدرت بعيدا عنها. لم تصبه، حيث إنها عَمَلَتْ مايسمى (السيكترما) أى أننى أطلقت الرصاصة بزاوية ميل، والخوذة التى أردت تجنبها استقبلتها للأسف، ولايمكن للرصاصة اختراق استدارة حديدة الخوذة إلا إذا تعامدت أو سقطت عمودية على هذا الحديد، وهو أمرصعب لقلوظة (دائرية) الخوذة كما نعرف جميعا، وهكذا تزحلقت رصاصتى وراحت نحو مكان آخر بعيدا عن ذلك الجندى ونجا. وهكذا ندرك فضل تصميم الخوذة فى حماية رأس المقاتل.

وبالمناسبة كانت هذه الرصاصة الطائشة إحدى اثنتين فقط لى طاشتا خلال السنتين اللتين قضيتهما بالجبهة، وكانت الثانية على هدف متحرك غير آمن، وكنت فى غاية التوتر العصبى، وبالتالى غير منضبط التوزان. ولقد سقطت الرصاصة على بعد ١٠ سنتيمترات خلف أقدام الهدف المتحرك. المهم حفزتنى تلك الخوذة العائقة على الوصول سريعا لرقم ٩ مكرر، فظللت فى تصميم مراقبا الشبكة، وبعد عدة أيام وقعت عيناى على رأس تحت خوذة. ودققت زاوية الضرب، واخترقت الرصاصة الوجه تحت الخوذة مباشرة، وظهر لهيبها المشتعل مؤكّداً سقوط رقم ٩ صريعا.

وجاء بعده رقم ١٠ هدفا متحركا. لقد كان يجرى فى خندق ينحنى تارة ويستقيم تارة أخرى. لقد كان يجرى بمعدل ٢ ـ ٣ خطوات فى الثانية، وكان انحناؤه واستقامته فى تبادل كل بضع ثوان. وقد تدربت على إصابة الهدف فى ٤ ثوان، بل قد نجحت كما سبق القول فى إصابة الهدف فى ثانيتين كما حدث لى فى المسابقة، وأدى إلى فوزى بها. وهكذا انتظرته وصوبت عليه

بسرعة خارقة وهو فى حالة استقامة، فانحنى مرة أخرى مختفيا عن الأنظار إلى الأبد، ليصير الخندق الذى يحميه مقبرته.

وتَلاَ ذلك الحادى عشر. كان شيئا رائعا وحافزا أن أصل إلى رقم ١٠، لكن تجاوز هذا الرقم أروع وأكثر حفزا. وكان قنص رقم ١١ نوعا من المغامرة المندفعة التى تقوم علي الجسارة غير المحسوبة، والشجاعة الاندفاعية. لقد نصحنى كل زملائى بعد أن حكيت عن هدفى بألا أفعل، لسبب بسيط هو أن المكان الذى سوف أصطاده منه مكشوف، وغير آمن، مما يحول بينى وبين عودتى إليهم حيا. وكان منطقهم معقول، حينما قالو لى لو قتلوك بعد قتله فالمعادلة لصالحهم برغم أنها ستكون واحدا مقابل واحد، حيث إن حياتك تعنى إمكانية قتل جندى منهم كل يوم، فلم تختر هذا الهدف القاتل، وفى إمكانك كالمعتاد البحث مع الوقت عن هدف يكون آمن القنص؟ لقد كنت أراقب من هذا المكان أحد الأفراد الإسرائيليين، وتأكدت أنه فى بؤرة بندقيتى، لكن بعد نصيحة الزملاء أمضيت أسبوعا أفكر فى الأمر دون أن أتوقف عن مراقبة هدفى. كان المكان فى قلب محطة الديفرسوار التى دمرها العدو الإسرائيلى بعد ٦٧، وهى على لسان داخل البحيرات المرة. وكنت أكمن تحت الأنقاض فى الدور الأسفل قرب المياه.

من هذا المكان رأيت أضعف جزء فى تحصينات الموقع الإسرائيلى، ولعلهم اعتبروا هذا المبنى المدمر المهجور ساترا لهم. لقد كنت أرى مجموعات من العدو بأجسامهم كاملة، وفى أسوأ الأحوال كان يظهر ثلثا الجسم. لقد كان الصيد سهلا وثمينا، لكنهم أيضا يوجهون نحو المحطة عددا من دباباتهم وآلياتهم ومدافعهم، الخلاصة كانوا آمنين هناك على الضفة الأخرى، وكنت أحلم دائما بأن أساعد على نزع إحساسهم بالأمن على طول موقعهم المواجه لموقعنا، حتى لو ظنوا وظن زملائي أنى لامحالة

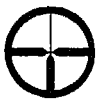
مقتول، لأن مجرد أى حركة فى المحطة سوف تنطلق صواريخ أرض - أرض بجانب المدرعات والمدفعية. إن المكان بطبيعته ينبغى أن يكون بالنسبة للمصريين جاذبا للأهداف، وهو بالنسبة للإسرائيليين موقع مركوب يسهل الرد على أى إطلاق للنار منه.

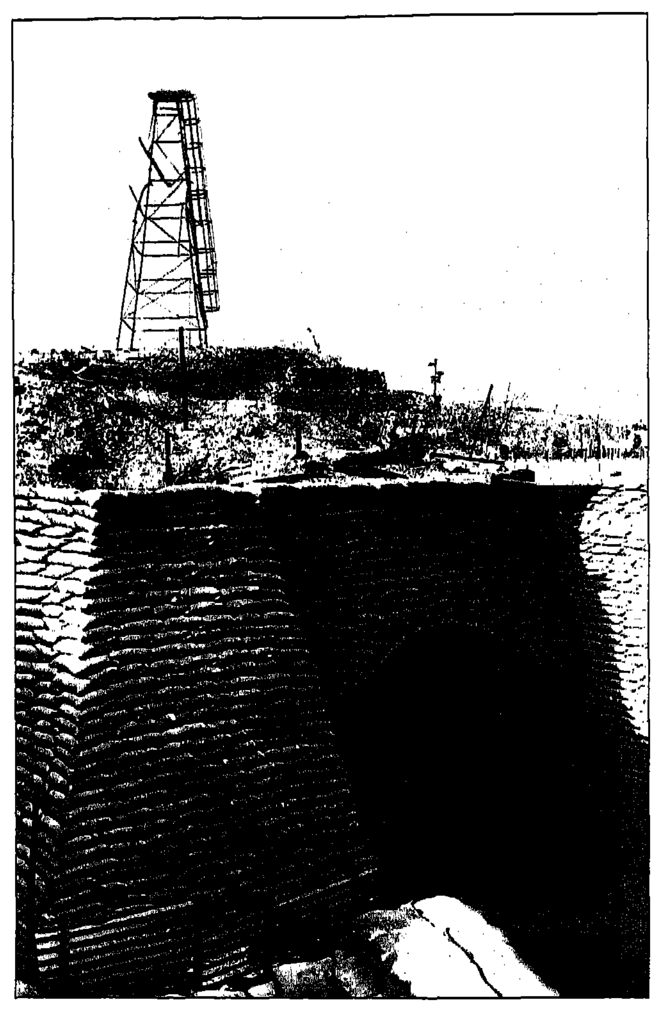
حسبت المسافة بين مكان كمونى ومكان أقرب ملجأ مصرى. كانت المسافة طويلة (٢٥٠ - ٣٠٠ متر). يستحيل العودة. ونظرت حولى فوجدت جزءا كامل التدمير فى المحطة بشكل أوقع عددا من الجدران بعضها فوق بعض، وظننت أن تلك الجدران المتراصة فوق بعضها قد تكون لى الملجأ الذى سوف يحمينى عند ردهم العنيف. لقد كنا فى شهر رمضان الذى سبق وقف إطلاق النار الذى تم عام ١٩٧٠. وبالمناسبة بعد القنص الثامن تم ترقيتى إلى عريف (شريطتين) ثم إلى رقيب (٣ شرائط). وهكذا أصبحت مسئولا عن فصيلة تعدادها ٣٠ فردا مشاة بأسلحة خفيفة بجانب بندقيتى القناصة العجيبة. وكان من المباح لنا الإفطار بسبب حالة الحرب لكن ٩٥٪ من الضباط والجنود يصومون برغم ذلك، والعدو لم يهمل قط عادات المصريين الرمضانية، أقصد مايحدث ساعة الإفطار من كمون وسكون. ونادرا مايحدث اشتباك فى هذه الساعة، وإذا وقع يكون من العمق من جانبنا، أى بالمدفعية الثقيلة التى كادت أن تكون مكشوفة برغم التمويه بالزراعات وغيره من تباب صحراوية وشباك، أما على الشط فجميعنا فى الملاجئ لتناول طعام الإفطار، ماعدا مجموعات الاستطلاع، ونقاط الدفاع المباشرة ذات مدافع الماكينة، بمعنى لايبقى خارج مائدة الافطار بالملاجئ إلا جنود الخدمة الضرورية ضرورة قصوى.

وفى بداية رمضان كنت أحاول جاهدا دراسة وضع وسيكولوجية العدو الإسرائيلى فى رمضان من أسلوب تعامله معنا فى تلك الأيام، والتغيرات

التى تطرأ على هذا الأسلوب خلال صومنا. لقد لاحظت حدوث أصوات وضوضاء فى الجانب الإسرائيلى عند حلول لحظة الإفطار، وهى أصوات تشبه تهليل الأطفال عند إطلاق مدفع الإفطار (طبعا فى الجبهة برغم وجود آلاف المدافع فلم يكن لدينا مدفع إفطار!). لقد كان إفطارنا مثل (الهاف تايم) بين أشواط المباراة، وبالفعل ذكرنى سلوك الإسرائيليين تجاه الإفطار بفرحتنا فى المدرسة بالفسحة. كانت تسود موقعهم فوضى ولهو وتنازل نسبى عن الاحتياط، ينسى بعضهم احتمال وجود قناصة مصريين يراقبون نزقهم الطفولى، أو قل الإنسانى المفهوم!

فى ظل الوضع المستجد فى رمضان كانت فرصتى كبيرة خلال الفسحة الإسرائيلية ساعة الإفطار، حيث لاحظت الظهور الحذر لكثير من أفرادهم. وهكذا لم يعد الصيد من محطة الديفرسوار هو فرصتى الوحيدة، فقد تعددت الفرص للصيد، ومن مواقع آمنة. وهكذا كنت أنتظر أذان المغرب أو لحظة غروب الشمس ليس للإفطار، وإنما للخروج والاستطلاع والبحث عن صيد. وكان التوفيق يكاد يكون قياسيا أو قل خياليا، كما سنرى فى الفصل التالى.





أحد تحصينات العدو الإسرائيلى لخط بارليف والتى حطمها المقاتل المصرى.



« ١٥ »

إفطار القنص

كما ذكرت كلما تدحرجت الشمس إلى هوة الأفق ساقطة لاتبين تعلن مصرع النهار وميلاد الليل، وفى النقطة الفاصلة بين الحدثين تحين لحظة إفطار يوم صيام من رمضان. كنت لا أذهب إلى الإفطار، وإنما إلى الاستطلاع لعله يكون إفطار صيد ثمين. على هذه الوتيرة مرت أيام من رمضان، لتمنح كما تذكرون كل يوم فُسْحَة، ساعة الإفطار للطرفين، الطرف المصرى يفطر ويتسامر، والطرف الإسرائيلى يلهو ويتنازل عن شىء من حذره خلال ذلك اللهو المسترخى. وفى أحد الأيام ظهر لى حوالى ١٥ - ٢٠٪ من الجزء الأعلى من جسم إسرائيلى. كان يظهر الرأس والكتفين فى شىء من الثقة وبعض من الاطمئنان. لقد كان ظهوره ضمن ظهور لآخرين فى نقاط أخرى. ومع أن الظهور يكون خاطفا إلا أنه يكفى لانطلاق الرصاصة والإصابة فى مقتل. وقد كان وتم مصرع رقم ١١ دون مخاطرة كبيرة بعد غروب شمس ذلك اليوم. طبعا تم تعكير الفُسْحَة عند الطرفين بالرد العنيف الإسرائيلى المعهود.

فى اليوم التالى كان الظهور أقل، وكانت همهمة الفُسْحَة بينهم لاتكاد تبين. لقد أخذوا إنذارا، وأحسوا أن إفطارنا لاينسينا العدو، أو حالة الحرب، وأننا نفطر مستيقظين. لقد كان رد فعلهم بالغ الوضوح، ومع ذلك

تابعوا الظهور هذه المرة ظنا منهم أن القناصة فحسب هى التى تعمل ساعة الإفطار، فكان ظهورهم يخلو من اللهو، وإنما للاستطلاع وحمل مسئولية قنص أى قناص مصرى، وهكذا وأنا كامن فى نفس موقع الأمس عرض لى رأس جديد، فأطرت عنه جمجمته بقناصتى الحميمة التى كانت أكثر الأشياء ملازمة لكيانى فى تلك الأيام. وكان الصيد الثانى عشر فى اليوم الثانى مباشرة للصيد الحادى عشر. إنه توفيق غير عادى لأى قناص، وقد تصاعد برج حظى عندما تكرر الأمر فى إفطار اليوم الثالث لأصل إلى الرقم ١٣. ثلاثة إفطارات رمضانية تشبع النفس، وتحقق الرضا حتى الامتلاء. عند الصيد الثانى عشر، والثانى فى يومين، قام قائد الكتيبة بإبلاغ قائد الجيش الثانى فى دعابة وكأنه يشكونى إليه. قال له: لثانى يوم على التوالى يعملها نوار ولايتركنا نفطر. طلب قائد الجيش الثانى حضورى لمكافأتى، وفى اليوم الثالث مع الصيد الثالث عشر، فوجئ قائد الجيش الثانى بالخبر، وقال لقد أحضرته بالفعل لمكافأته على صيدين متواليين بالأمس فقط، والآن يستحق مكافأة خاصة. وقد كان. لقد استدعانى وقدمنى للقواد فى شبه احتفال يحمل أجمل معانى التكريم لجندى. لقد شد الجميع على يدى وشجعنى، لكن مع كل هذا التشجيع، وبرغم المحاولة سيغدو القنص أمرا بالغ الصعوبة بعد ذلك. فقد اختفى الإسرائيليون.

لايمنع هذا الاختفاء؛ أنَّ حَدَثَ اصطيادِ ثلاثة أفراد إسرائيليين بقناصتى فى ثلاثة أيام متوالية، كان له طعم خاص فى شهر رمضان، بل توقيت اصطيادهم ربط الأمر بالإفطار، وفتح بابا للفكاهة بين زملائى. إن هذه الواقعة نادرة التكرار، كما أن رمضان ليس ككل الشهور. هل غمرتنى بركاته؟ هذا مما لم أشك فيه قط.

وامتلأتُ بالفخر الداخلى والحزن معا. الفخر لأن جنديا إسرائيليا

واحدا لم يعد يرفع رأسه فوق مستوى خندقهم، وأن التمويه الذى وضعوه لتمكينه من رفع رأسه وإبرازها عندما يحتاج لم يعد يجدى فى شىء، أما الحزن فبسبب البطالة التى أصابتنى لاختفاء الرءوس، وتعذر الحصول على صيد. ومع ذلك فأنا أعتمد على طبيعة الكيمياء البشرية أو البيوكيمياء للجسم بين الثبات والتغير، أعنى خصائص هذه الكيمياء الطبيعية، وماتحدثه الحرب من تغييرات فى مساراتها وتفاعلاتها، فقسوة الحرب وفظاعاتها تكاد تنشئ جهازا بيولوجيا جديدا يحاول أن يتأقلم مع الحياة البشعة المعايشة للحروب. وأبسط ماتحدثه الحرب هو الرعب الدائم، وحياة الرعب الدائم مستحيلة، وبالتالى فالجهاز البيولوجى يفرز تفاعلات لنسيان أسباب الفزع، لكى يطرد ديمومة الرعب، ويبدد استمرارية الخوف. ولهذا كثيرا ماننسى ماحدث الشهر الماضى، وتتلاشى من ذاكرتنا فظاعة رؤية تمزق جسد شهيد أو جمع أشلائه من مساحة واسعة.

فلا وقت مع تلاحق أحداث العنف الفظيعة لاسترجاع الوقائع وتحليلها أو الاستفادة منها، ولو حدث ذلك للأفراد المقاتلين لفقدوا كثيرا من شجاعتهم وقدرتهم القتالية، فالدراسة والاسترجاع بقصد التحليل والوصول إلى نتائج وقواعد ونظريات هو واجب الباحثين العسكريين، الذين يتفرغون لذلك، بالجلوس فى مواقع معينة حصينة لأداء البحث، أو هو واجب القادة فى غرف العمليات التى قد تكون فى مؤخرة الجبهة أو بعيدا عنها. أما الجنود العاديون سواء منا أو من الإسرائيليين فليس لديهم الوقت لهذا (وإن كان عندى وقت متسع بصفة شخصية أنا وكل القناصين الذين بين غيرهم من الجنود مثل العاطلين بالوراثة بين غيرهم فى المجتمع المدنى، ولكن لم يكن الوقت للتحليل والدراسة تماما بقدر ماهو للاستطلاع ومحاولة الإيقاع بصيد).

وكيمياء النسيان أعطتنى الصيد الرابع عشر والصيد الخامس عشر.
وكان كما رأينا من الصيد ١١ إلى الصيد ١٣، الوقت هو الغروب، أى لحظة الشفق، ويأتى الصيد ١٤ معكوسا عند الغسق، حيث أتذكر أنّى ذهبت قبل صلاة الفجر لآخذ موقعى، ودائما كنت أراقب نقاط استطلاعهم كثيرة الحركة وخاصة عند تغيير الورديات. فى إحدى هذه النقاط فى الجانب الأيمن فى اتجاه البحيرات المرة، كان أحدهم قد انتهى من ورديته، فخرج من نقطة الاستطلاع التى هى دائما تحت الأرض ومحصنة. لاحظت خروجه وأنا أراقب بالبيروسكوب. لقد كان خروجه نحو الخندق الذى سوف يسير فيه فيما يبدو نحو الملجأ الذى يعيش به أو نحو مكان للاستراحة أو للإفطار أو النوم أو ماكان من شئون الإنسان. والمعروف أن عمق الخندق أقل من طول القامة ومن الضرورى السير فيه بانحناء. ومع ذلك كيمياء الجسم فى تلك اللحظة ألْهَتْه بلذة تمطيط الجسم والتثاؤب، كرد فعل لطول جلوسه القرفصاء فى موقعه الاستطلاعى طوال الليل. إنها حركة عفوية لايمكن لمحفوظات الذاكرة أن توقفها.

كنت جاهزا دون توقع الحصول على صيد سهل وثمين، فى هذه اللحظة بالذات، لأن ردّ الفعل الإسرائيلى لايكون شديد الإزعاج عند الفجر وبداية النهار لأسباب إنسانية كما أوضحنا من قبل. كنت جاهزا فى أمل لايفارقنى كل يوم لحظة تغيير الورديات فى انتظار وقوع الخطأ الإنسانى الناجم عن تعارض كيمياء الجسم العادية مع كيمياء الجسم الجديدة التى تخلقها الحرب، فتولد حاسة الحذر والحساسية الشديدة.. وهكذا لم أضع الفرصة وانطلقت الرصاصة القاتلة للصيد ١٤. وبنفس الطريقة تحقق الصيد الخامس عشر.

وبعدها مرت الشهور دون العثور على صيد. لقد تعلم الإسرائيليون

أصول لعبة القنص المصرية، واستغنوا نهائيا عن رفع رءوسهم أو الظهور، أو السماح لجنودهم بالوقوع فى الأخطاء بأساليب أخرى للاستطلاع فيما يبدو، وكما حرمونا من اقتناص جنودهم حرموا أنفسهم أيضا من اقتناص جنودنا، لأن قناصتهم لابد أن يظهروا، وقد ملأهم الهلع وأدركوا أن قناصتنا أسرع من قناصتهم، وأنهم سوف يلقون مصرعهم بمجرد ظهورهم، وقبل تحقيق مهامهم. إنها نتيجة طيبة لاشك، لكنها حرمتنى من هوايتى فى اقتناص أعداء الوطن، وإن حققت هدفا لنا هو إثارة فزعهم ونزع إحساسهم بالأمن واللامبالاة فى تعاملهم معنا. إن المواقع المصرية على الضفة الغربية للقناة أفقدت الإسرائيليين وهْم تفوقهم، وأحسوا بتعادل كفتى الميزان، مع تبادل مواقف الهزيمة والانتصار.

فى ظل هذا الوضع التالى للصيد الخامس عشر عادت أنظارى مرة أخرى لمحطة الديفرسوار، والتى كانت أيام عمل القناة مهمتها حمل مسئولية مرور السفن بالبحيرات المرة وتأمين دخولها إليها وخروجها منها. بعد تدمير هذه المحطة بصواريخ إسرائيل بقى بعضها قائما لم يهدم، ولأنها داخلة فى اللسان، فمنها يمكن رؤية جزء من عمق موقع العدو من الجنوب بشكل مباشر شديد الوضوح، فهى مكان استراتيجى ليس فحسب لقنص الأفراد بل لقنص المدرعات، وأيضا لركوب العدو.

المشكلة أمام استعمال المحطة سبق أن ذكرتها وهى تعذر الانسحاب منها بعد إنهاء أية عملية لطول المسافة بينها وبين أى ملجأ لنا، ولوجودها على لسان ضيق يمكن قطع الطريق علي من يدخله أو يخرج منه بمدفع رشاش صغير، هذا فضلا عن تكريس العدو بعض العناصر الدفاعية الهجومية مقابل المحطة مثل وضعه لفصيلة دبابات، وظيفتها حماية البحيرات من الجنوب.

وقد لاحظت ظهور أطقم الدبابات وقادتها فوق أبراجها. أبلغت قائد الفصيلة وقائد السرية بما أفكر فيه، وتم وضع خطة مبدئية للاشتراك أنا وزميلى القناص فى اقتناص قائدى دبابتين، حيث إن الدبابة الثالثة لم يكن يظهر فوق برجها أحد، وظننا أنها هيكلية، ويقوم معنا ثلاثة من قناصة الدبابات باقتناص الدبابات الثلاث، حتى لو كانت الثالثة هيكلية. وبهذا بدأت المجموعة المراقبة معى، والتدريب على العملية. وبعد أن تم التدريب قام قائد السرية وقائد الفصيلة بمناقشة العملية ونتائج التدريب.

لقد استقر الرأى على القيام بالعملية من الدور الثانى للمحطة، حيث يبدو التنفيذ من هناك بالغ السهولة، وقمنا بالتدريب على الانسحاب، وكان يبدأ بالقفز من الدور الثانى وسرعة الجرى نحو أقرب ملجأ. استغرق الانسحاب من دقيقة إلى دقيقتين، وهو وقت فلكى الطول بالمقارنة بالوقت الذى يستغرقه رد فعل العدو لتدميرنا وقطع الطريق علينا، فهو لايتجاوز بضع ثوان. استبعدنا فكرة الانسحاب واعتبرناها مهمة انتحارية. قدر قائد السرية وقائد الفصيلة أن المهمة لاتستدعى ضرورتها الاستراتيجية تنفيذها بعمل انتحارى. ومع ذلك، تم إقناعهما بالقيام بها. فذهبت أنا وزملائى بأسلحتنا وصعدنا الدور الثانى. كانت تنتظرنا مفاجأة مذهلة. لقد اختفت الدبابات الثلاث. فشلت كما قلت المهمة لانسحابهم، فهل عرفوا خطتنا أم أنها الصدفة ووجود بقية بالعمر. لا أستبعد الاحتمالين، فلعلهم كانوا يراقبون تدريبنا، أو لعلهم احتاجوا للدبابات فى موقع آخر.

طلبنا من قادتنا الحضور وملاحظة مشهد موقع العدو، ومدى ضعف تحصيناته، ولاسيما بعد انسحاب الدبابات، فلعلهم بخبرتهم يقترحون علينا مهمة أخرى ضد موقع متاح أو مكشوف العورات. لم يستجيبوا لما نطلب، واعتبروا المهمة ملغاة بشكل قاطع، أقصد مهمة مهاجمة موقع العدو من

المحطة المدمرة المنفية وحدها، وكأنها تقف تحمى الطرفين فهى تستر نقطة ضعف الموقع الإسرائيلى، وتحول بيننا وبين ضربه لاستحالة النجاة من نفس مصيرها، وبهذا حمت حياتنا. هل هناك أماكن مرصودة؟ لا أظن إنما هو الموقع وتاريخ المكان وظروفه. لقد ظلت تؤمن دخول السفن وخروجها إلى البحيرات من قبل، ومعنى ذلك أن موقعها فريد وتم اختياره بدقة لأسباب سلمية، وهو اختيار أعطاها هذا الدور العسكرى الفريد.

لقد فشلت المهمة، وترعرعت أزهار الملل، ولعلكم تذكرون إشارتى مبكرا لهذه المهمة المجهضة فى الفصل الثانى عشر عندما تحدثت عن أزهار الملل لكونها واحدة من تلك الأزهار، التى سوف تثمر فيما بعد عظمة أداء جنود مصر فى حرب ٦ أكتوبر العظمى.





«١٦»

رمضان وذكريات أخرى

لايوجد شيء يجمع قلوب البشر مثل التعرض لخطر قاتل مشترك. وهذا حالنا على الجبهة. وبالتالى فماذا ينقص مجموعة متحابة فى الوطن تواجه النيران المسعورة ليل نهار: إنها لحظات روحية تسمو بالنفوس إلى مافوق الأحداث. وهذا سحر رمضان على الجبهة، وهو سحر يبدأ بالشجون اللذيذة. رمضان يعود دائما مشحونا بذكريات الطفولة، ولم شمل الأسرة والأحباب حول موائد الإفطار العامرة أو موائد السحور الرومانسية، حيث سمر الناس حول طعام لحظة السحر، أو تلك الوجبة غير المألوفة بين البشر، لكن على الجبهة نستقبل رمضان بكل طقوسه وشعائره دون الأسرة، ودون معظم الطقوس والشعائر المألوفة. إننا نعيشها فى ذاكرتنا داخل أسرة جديدة ترتدى الزى العسكرى المموه وتدفن نفسها فى حفر ومخابئ.

لكن لابأس بفضل نيران الاشتباكات استغنينا عن الفوانيس والثّريات. وبفضل تضامن القلوب خلقنا لنا أسرة مختلفة لكنها متضامنة يجمعنا رمضان فى شيء جديد من البهجة لانعرفها فى الشهور العادية. نكسر ملل التكرار بطقوس رمضان وشعائره، ويكاد يحمينا الصيام طوال اليوم من الطعام السيئ المعتاد على الجبهة، وتأخذنا الجلالة فنتحمس لأداء الصلوات فى مواعيدها. إننى لا أستطيع أن أعبر كيف ينتقل تأثير روحانيات رمضان

إلى الأثير نفسه، وخاصة عندما يبدأ ضرب العدو الإسرائيلى عند الإفطار، فيظل الصائمون على لحم بطنهم من السحور إلى السحور، فغالبا مايستمر الضرب من ٥ إلى ٦ ساعات، ومع ذلك فالضرب أقل واحتمال تناول الإفطار فى موعده أغلب فيما أطلقت عليه فسحة الإفطار، وانتقال سلطان رمضان إلى الإسرائيليين أنفسهم، وكأنهم يشاركوننا الشعائر الرمضانية.

وفى رمضان نتذكر شهداءنا، لكن بطعم دينى يتأمل فى عجائب القضاء والقدر. حقا لم تكن خسائرنا كبيرة بل كانت قليلة جدا، لكنها مثيرة للتأمل، وتتم الخسارة المؤلمة فى مجموعة من المصادفات أو المفارقات غير المعقولة.

وأضرب أمثلة، منها أن أحد أفراد الاستطلاع المتخذ موقعا فوق شجرة فى لحظة تغيير الوردية، وكان زميله ينتظر تحت الشجرة معدا نفسه للصعود إلى الموقع المعد هناك، حيث يتم ترييح لوح من الخشب فوق الشجرة وبين فروعها، عليه شكائر رمل، ويمكن للفرد أخذ راحته عليه بل والنوم. المعتاد أن يصعد بدل الوردية أولا، ويتخذ موقعه ثم يهبط زميله، وذلك حتى لايُتْرَك موقع الاستطلاع دقيقة واحدة دون مراقبة العدو. ولكن كانت لحظة هدوء، فقرر الجندى بأعلى الشجرة الهبوط أولا، على أن ينتظر زميله ثم يصعد. وأثناء هبوطه واحتضانه جذع الشجرة فى قوس يشكله ظهره بين تشابك يديه ورجليه مع الجذع بدأ الضرب الإسرائيلى، واخترق قوس جسمه دانة مدفع مضاد للدبابات. إنها المصادفة المذهلة، التى جعلت زميله ينجو لأنه لو صعد لكان في نفس الوضع عند مرور الدانة. لم نعثر برغم ضغط قائد الكتيبة على أى أثر أو شظية من جسمه. لقد تناثر مثل التراب على مساحة واسعة. مجموعة المصادفات التى ربطت لحظة تغيير الوردية

بمخالفة التعليمات، وهبوط الشهيد قبل صعود زميله، بالضرب الإسرائيلى ويمرور الدانة بدقة مخترقة جسمه، ومبددة له فى الفراغ.

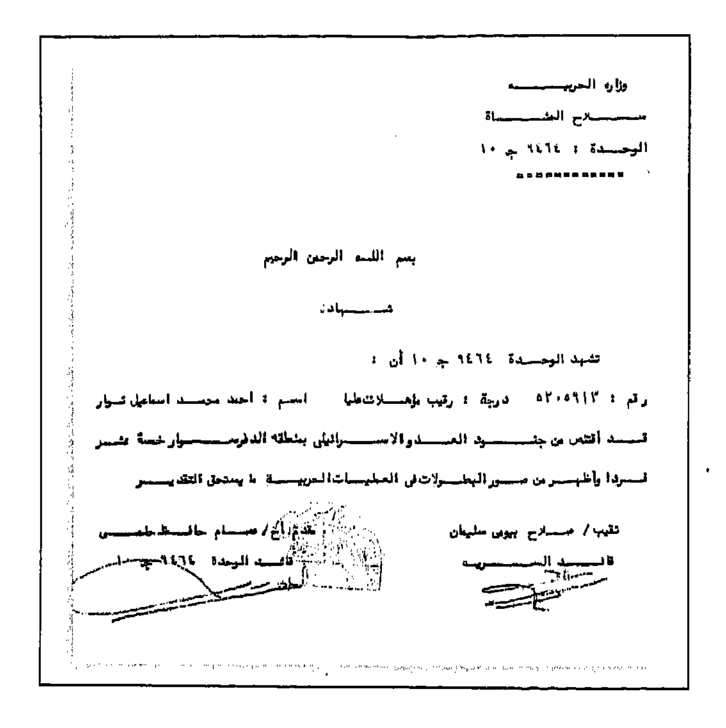
وحالة أخرى، حيث كنا فى الديفرسوار نتبادل المواقع مع القوات الموجودة فى طوسون، وهو مكان صحراوى مكشوف بعكس غابة الديفرسوار وسهولة التمويه بها. إن طوسون كانت بقعة صحراوية على امتداد الديفرسوار فى اتجاه الإسماعيلية نحو الشمال. كان هناك ضرب على الموقع بقنابل ٥٠٠ - ١٠٠٠ رطل، وهى قنابل فظيعة تحفر الأرض على عمق ٩ أمتار، وأحيانا كانت تتدفق المياه من الحفرة، التى تكون دائرة قطرها ١٠ أمتار تقريبا. كان لنا زميل خريج كلية الزراعة وشاعر يقف على بعد سبعة أمتار من سقوط القنبلة. وبعد توقف الضرب ذهبنا نبحث عنه، فوجدناه قد غطته الرمال التى اندفعت من الحفرة. أخرجناه وكان سليما لم يصب بسوء، بينما طارت من القنبلة شظية أصابت زميلا آخر كان على بعد ١٥٠ مترا من موقع سقوطها، واستشهد هذا الزميل من تلك الشظية، حيث تندفع الشظايا مرتفعة فى الجو على شكل قوس، ثم تسقط على مسافات بعيدة. تتخذ الشظايا شكل المشرط أو شفرة الحلاقة العملاقة، مع كونها من معدن فى حالة احمرار يجرح ويحرق فى آن، مسببا الموت العاجل. أليست مفارقة نجاة من كان ملتصقا بالقنبلة وموت من كان شديد البعد عنها؟! ومع ذلك فإن الناجى اكتشف بعد ذلك ثقب طبلة أذنه، بينما الصريع شقت الشظية جسمه إلى شطرين.

وفى إحدى المرات تم قصفنا بالطيران، ونزلنا إلى الحفر البرميلية، وبعد انتهاء الضرب قمت بإحصاء فصيلتى، وكانت الخسائر صفر، فقمت بالذهاب إلى الفصيلة المجاورة للاطمئنان عليهم، وكانت الخسائر أيضا

صفر، لكن خطر ببالى السؤال عن أحد الجنود وهو صديق لى، فاضطرب قائد الفصيلة، إذ غاب عن ذهنه هذا الجندى خلال مراجعة فصيلته، وبحثوا عنه فلم يجدوه، وكان السبب أنه عند بدء الغارات كان نائما فى المخبأ، ولم يستيقظ، ولم يخرج أصلا إلى الحفر البرميلية، وزرته فى المخبأ، وكان مازال نائما مما أثار الشك، فرفعنا البطانية، ووجدناه غارقا فى دمائه، وقد رحل وصعدت روحه إلى بارئها منذ بعض الوقت. لقد تسللت شظية إلى داخل الملجأ وصرعته، وهو أمر صعب، فالمخبأ له ممر طويل، ثم انحناءة لليسار وأخرى لليمين قبل دخوله، ولكنه القدر حيث تصطدم الشظية بجدار فتحدث تغييرات فى اتجاهها، فتسلك طريقها نحو أعماق المخبأ، وكأنها من سكانه، وتلك هى مداعبة القدر لنا، حتى لانخشى الموت، الذى سوف يدركنا، ولو كنا تحت الأرض فى أحصن مخبأ.

وذهبت مرة لشرب الشاى مع ملازم أول مدفعية ثقيلة اسمه فؤاد مراد وكان صديقا لى يعمل فى مؤخرة موقعنا، وفاجأنا الضرب بالهاون، فدخلنا إلى المخابئ، وقرر هو عدم الدخول لتفقد مواقعه وجنوده، وبرغم أن حديثنا قبل الضرب كان حول التكتيك العسكرى فى حالة ضرب الهاون، إلا أنه خالف التكتيك فى شجاعة نادرة، ولما اشتد الضرب وبدأت الدانات تزرع كل نقطة بالمكان، أسرع إلى المخبأ، وأسرعت وراءه شظية ممزقة اخترقت أجزاء متعددة من جسمه. سحبناه بسرعة نحو الداخل، وطلبنا الإسعاف، فتعذر دخوله إلينا أثناء الضرب. حملناه مخترقين الدانات إلى الإسعاف، وتم نقله إلى مستشفى الجلاء بالهليوكبتر، وتم استخراج الشظايا من جسمه، ماعدا بعضها فى الرئتين تعذر إخراجها، وقالوا أن لاضرر من بقائها، حيث تتليف حولها الرئة ولايضر، وهكذا نجا بمعجزة، لأننا لو انتظرنا مثل الإسعاف إلى نهاية الضرب، لنزف حتى الموت.

هناك فى رمضان كنا نتذكر وقائع الحياة والموت على غرابتها، ويزداد إيماننا بالله والوطن، وتسمو الروح فوق الدنايا والصغائر التى تمتلئ بها الحياة، ويتحول الصيام الذى يراه البعض مثل العبء الثقيل أو الممارسة الشاقة إلى طاقة روحية مذهلة، كان من نتائجها إفطارى ثلاثة أيام متوالية على صيد إسرائيلى، ومنع رد فعل الموقع الإسرائيلى العنيف كل أفراد الكتيبة من تناول إفطارهم، سوى جرعة ماء وأطنان من القنابل المصفقة فى الفضاء بصفير يصم الآذان. كان رمضان أمانا ضد الخوف وضد كيد العدو، لم يمر بى بعد ذلك رمضان بهذه الروعة الروحية.



وزارة الحربية
سلاح المشاة
الوحدة : ٩٤٦٤ ج ١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

شهادة

تشهد الوحدة ٩٤٦٤ ج ١٠ أن :

رقم : ٥٢٠٥٩١٣ درجة : رقيب مؤهلات عليا اسم : أحمد محمد اسماعيل نوار

قد اقتنص من جنود العدو الاسرائيلى بمنطقة الدفرسوار خمسة عشر فردا وأظهر من صور البطولات فى العمليات الحربية ما يستحق التقدير

نقيب / صلاح بيومى سليمان
قائد السرية

مقدم أ.ح / عصام حافظ طمس
قائد الوحدة ٩٤٦٤ ج ١٠

وثيقة إثبات للمقاتل القناص أحمد نوار لاقتناصه خمسة عشر إسرائيليًا.



« ١٧ »

العـــبور

لقد كان الجيش المصرى يعد للعبور إعدادا عمليا بألف طريقة وطريقة. وكان الإعداد الأكبر هو بعبور وحدات صغيرة للعمل الاستطلاعى خلف خطوط العدو أو العمل التدميرى على حد سواء، وكان العبور للعمل التدميرى يتطلب عبور وحدات كثيفة العدد نسبيا تصل إلى مستوى السرية الكاملة. وخلال هذا التدريب عبرت ٦ مرات، برغم أننى لا أجيد السباحة، وهو أمر أخفيته على الرؤساء، وساعدنى فى ذلك بعض زملائى الجنود. كنا نعبر على هيئة مجموعة صغيرة من ١٠ أفراد على رأسها قائد برتبة ملازم أول. الهدف بجانب ماذكر من استطلاع على أى عمق ممكن هو التمرس على العبور.

نقطة عبورنا كانت تقع بين الديفرسوار وطوسون. كنت أقوم بمهمة الكشاف، أى أتقدم المجموعة لأكتشف طبيعة الأرض التى نخترقها، وهل هى ممهدة أم بها تباب، وهل هناك أسلاك أو ألغام وغير ذلك من معالم الطريق. والظلام الدامس لم يكن يحول دون الرؤية، لأن العبور دائما عندما يحل الظلام فى الليالى غير المقمرة، والعودة عند الفجر قبل أن يحل ضوء النهار. ومن واجبى استمرار إعطاء إشارة للمجموعة بالتقدم أو التوقف. كنت أتقدمهم بحوالى ٢٠ ـ ٢٥ مترا. لم أكن أشعر بالوحدة أو الرهبة فى

سكون الليل ورهبة الظلام، لارتباطي العضوي بمجموعتي من خلفي، وانشغالي الشديد بالحملقة في الظلام، وتحسس مواضع قدمي فيما يشبه المجس للأرض. في هذا الجو تنمو الحواس بما فيها حاسة اللمس والسمع والشم، فكلها قرون استشعار تقوّي الرؤية في الظلام. وكنت أرى بظهري مجموعتي دون أن أراها مما أسميه تصاعد نمو حاسة الخيال.

وفي إحدى هذه المرات الست للعبور وقع لنا حادث سيترك أثرا طويلا في حياتي الصحية والنفسية. يتلخص الحادث في انقلاب قاربنا في منتصف قناة السويس. كان القارب مثقلا بنا وبأسلحتنا وذخيرتنا، ولحسن حظي أننا كنا نرتدي جاكتات النجاة. حاولنا إعادة القارب إلى وضعه الطبيعي فلم يستجب، وكما يقولون وقع لنا «لُخبيط اللخبطان». فكلما عدلنا القارب انقلب من جديد. إنها لحظات رهيبة، كنا نخشى فيها من اكتشاف العدو لنا، ولاسيما فيما يبدو أن هناك نسبة من الفوسفور تلوث مياه القناة، حيث كانت تضئ أيدينا وأقدامنا كلما برزت فوق الماء. أخيرا بعد مرور ٢٠ دقيقة من الرعب استطاعت مجموعة التشبث بالقارب من ناحية لتثبيته وحمايته من تقليب المياه له، ومجموعة أخرى قامت بقلبه في هدوء حتى اعتدل وثبت، وقمنا بصعوده واحدا واحدا، واتجهنا الى الشاطئ الغربي.

عند الوصول اكتشفنا سقوط سلاح القائد وثلاثة جنود، حيث كنا نحمل أسلحتنا تحت الإبط متقاطعة مع الجسم. لم ننصرف بأمر من قائدنا، حتى يبلغ قائده الأعلى، وهذا الأخير أمر بعدم العودة دون السلاح المفقود، فالمنطق العسكري لايعترف بنجاة جندي بغير نجاة سلاحه. كان بيننا جنديان، أحدهما: سباح محترف، والآخر: صياد، وقد تطوعا للبحث عن السلاح. وبالفعل قاما بعمليات غوص وصعود، حتى حددا مكان السلاح واستخرجاه، وكان في تلك اللحظة يكاد يستخرج النهار خيوط الضوء من

قلب الظلام الذى يحمينا من عيون العدو. استغرق إخراج السلاح ساعة، عاد بعدها الشرف والإحساس بالراحة عند من فقدوه، بينما معظمنا الباقى لم يصدق بانتهاء المهمة والنجاة. وأصبت بنزلة شعبية وتلك قصة مفزعة ستكتمل فصولها فى إسبانيا كما سنرى فى فصل «المرضان»، فى الصفحات القادمة.

المهم كقناص، فأنا ملحق بوحدتى، ولا مهمة لى أساسية إلا القنص، ولكن مع ترقيتى وتعيينى شاويش لفصيلتى، ولما اكتشفوه عندى من مواهب وكفاءات. تحدد دورى فى عمليات التدريب على العبور، وهو كما ذكرت دور الكشاف، بمعنى أننى لم أكن من الأعضاء الأساسيين فى الوحدات التى تعبر، كما لم أكن من الصاعقة أو أفراد الاستطلاع، ولهذا ألحقونى برغم أننى من سلاح خاص (القناصة) طبقا لاكتشافهم قدرات الكشاف عندى، وهى قدرات كما نعلم اكتسبتها فى طفولتى وأوائل شبابى، وأثبتت فعاليتها ووجودها فى عملى كقناص. وقد وافقهم الاستفادة من هذه القدرات عند بداية تدريب الجيش على العبور، وتهيئته النفسية على ذلك. فالفكرة الشائعة أن العبور سيكون مكشوفا للعدو، وتحت سيطرته، والخسائر ستصل إلى ٨٠٪. كان لابد من تبديد هذه الفكرة عند الجنود والضباط.

ومن أطرف ماحدث لى فى هذه التدريبات عندما اشتركنا فى عملية (وهمية) لعبور القناة إلى عمق ٣ كم فى سيناء. حلّت ترعة الإسماعيلية محل القناة. تسبق المهمة عملية تقوم بها الضفادع البشرية التى تعبر إلى الشط الآخر، وتربط به خيطا رفيعا يجرون به قارب العبور حتى لايتم التجديف لتجنب إحداث أصوات تلفت نظر العدو.

وبالفعل عبرنا، واخترقنا سيناء إلى عمق ٣ كم، ثم عدنا، وأعادت لنا الضفادع البشرية القارب، حيث يحتفظون به دائما فى الضفة الغربية حتى

لايلاحظه العدو. وأثناء عبور القناة (أقصد ترعة الإسماعيلية) تلقى قائدنا تعليمات بأن العدو اكتشف قاربنا ولابد من الانتشار. ولا أحكى لكم هول الانتشار فى الماء بالنسبة لى، وهو أمر لم يكن فى حسبانى. ألقى الجميع فى قفزات رائعة بأنفسهم فى الماء، وسبحوا فى ثوان إلى الشط الغربى، أما أنا فالقيت نفسى واقفا مثل حجر يلقى فى الماء، ووجدت نفسى واقفا على قاع ترعة الإسماعيلية، وسرت فوق القاع، والقادة والآخرون ينتظرون طويلا على الضفة الأخرى شاكّين فى غرقى.

عندما وصلت بعد دقائق، سألنى القائد بدهشة عما حدث، فذكرت له أننى فضلت العبور غوصا تحت الماء حتى لاتصيبنى نيران العدو الذى اكتشف أمرنا أثناء السباحة، وأخذ القائد المعلومة على أنها فتح مبين، وحنكة من جانبى. الفكرة سليمة عسكريا مائة فى المائة، ولكنها كانت فكرة نابعة من عجزى عن السباحة، فأنا لم أكن لأفعلها أو أكتشفها لوكنت سبّاحا. وقد حدث لى مرة أثناء التدريب أن أمرونا بإلقاء أنفسنا فى ماء القناة فى منطقة بعيدا عن أعين العدو، وفعلت راجيا من زملائى عدم إخطار القائد بجهلى فى السباحة. استخدمت معلوماتى الأولية عن السباحة التى تعلمتها فى المياه الضحله قرب الشواطئ، وهى عملية بلبطة. المفاجأة، وربما حلاوة الروح والتوفيق الإلهى أننى استطعت العوم ومعى سلاحى لبعض الوقت. وساعدنى فى ذلك أن المياه المالحة تعين كثيرا على الطفو. وأقول هذه الواقعة لأشرح أزمتى (وحوستى) عندما قفزت فى ترعة الإسماعيلية، ذات المياه العذبة منخفضة الكثافة. لقد ابتلعتنى المياه، ولولا هاجس إمكانية أن أعبر الترعة متزحلقا على وحل قاعها لاستسلمت للغرق، والمعجزة هو نجاحى فى العبور هكذا، برغم ضيق تنفسى. ألم أقل إن القدر يداعبنا بمفاجآت تبعد الموت تارة عندما يكون مؤكدا، وتدهمنا به تارة أخرى عندما لايكون فى الحسبان. ومن اليقينى أن سلاحى وذخيرتى وثقل حذائى

بالفعل أوصلونى للقاع مثل حجر، ولولا ذلك لصارعنى الماء حتى يصرعنى. من يصدق أن الأثقال تنقذ من الغرق؟ أليست مداعبة أخرى جميلة من القدر؟

عموما لم أتعرض (ولم يكن ممكنا) للغرق خلال عبور قناة السويس ليس لثقل كثافة المياه، إنما بفضل چاكتة النجاة، التى نحرص على لبسها، فلعل أحدنا يجرح فيمكنه الطفو بينما يسحبه زميل، ولعل أفراد المهمة يعودون مجهدين غير قادرين على السباحة بقوة فتعينهم الجاكته العجيبة على السباحة السهلة، وكأنها زعانف سمك. أيضا كنا نعبر دون اعتراض من العدو الذى أقام خط بارليف على هيئة نقط حصينة تبعد كل نقطة عن الأخرى ٢٥ ـ ٣٠ كيلو مترا كان يغطيها بإمكانيات مدفعيته وتكنولوجيته، بجانب الدوريات المتحركة بالمجنزرات والدبابات، وأيضا عن طريق طيران كفء دائم التحليق، ونقاط استطلاع، بمعنى آخر، الخط كله عبارة عن شبكة متصلة دفاعيا، وكنا نعبر فى تلك المساحات الفارغة بين النقط الحصينة بعد معرفة دقيقة بإمكانيات تلك الشبكة وكيفية اختراقها دون أن يكتشفنا العدو، بيده الطويلة لسياسته الاستراتيجية المركزية، والمعتمدة على المدى المؤثر لنيرانه، والاتصال الشبكى لقواته، مما يعفيه من استحالة تحصين ١٧٠ كيلو مترا، هى طول الضفة الشرقية، أو نشر قوات بين النقط الحصينة. وكانت مواقعه الخلفية محاطة بألغام وليس لها إلا مدخل واحد ومخرج واحد. وكان الفدائيون المصريون يلتفون حول بعض هذه المواقع، ويدمرونها أو يهاجمونها إما باختراق الألغام، وهو أمر بالغ الصعوبة، أو باقتحام المداخل حال اكتشافها. عموما لقد حاول العدو تغطية المسافات بين الحصون، بكل الوسائل بما فيها نقط المؤخرة تلك، وأحيانا بتلغيم بعض الممرات، أو زرع أسلحة أوتوماتيكية. كنا نخترق كل هذه العوائق بالدراسة والإعداد الجيد.

ويحلو لى ذكر عملية فدائية مصرية، عبرت فيها مجموعة كبيرة القناة، لتدمير هدف محدد (موقع دبابات للعدو).

جاءت ساعة الصفر بعد الاستعداد الكامل. وبدأ التحرك ليلا تحت جنح الظلام فى ليلة تفتقد القمر النمَّام المبدد للإعتام. قبل بدء العبور يتم وضع جميع مدفعية الجيش والمدرعات، والصواريخ أرض - أرض وَضْعَ الاستعداد تحت مرمى نيران يحمى المجموعة بعد أداء مهمتها مباشرة، أو أثناء أداء المهمة لو استدعى الأمر، وذلك بإحداث ساتر نيران قوى ومكثف على شكل نصف دائرة لحماية المجموعة حتى عودتها.

الصمت يسيطر على المنطقة، الظلام موحش رهيب، القلوب تترقب بالوجيب. ثبتت الضفادع البشرية خيوط سحب القوارب. يعبرون كل ١٠ أفراد بقارب. بعد تمام العبور اكتشفت فصيلة الاستطلاع التى تتقدم المجموعة أن الهدف غير موجود. لقد تحرك لموقع تبادلى. صدر أمر بالانسحاب، ويعودون فى صمت وإحباط، لكن فى دقة ونظام. ويصممون بعد العودة على اكتشاف موقع الدبابات التبادلى الجديد، لم تمر أيام حتى اكتشفته وحدة استطلاع، ورسمت خريطة له. تتكرر العملية، ويتم تدمير الموقع الإسرائيلى بكامل دباباته.

تنطلق كامل أسلحة إسرائيل على مسرح العمليات لمنع الأبطال من العودة، لم يتخلف طيرانهم عن الاشتراك بالنابالم والصواريخ جو - أرض. لقد كانت الخسارة الإسرائيلية فادحة، فقد تم تدمير ليس فحسب دباباتهم بل أطقمها. عادت المجموعة بعد انتشارها. وصلوا جميعا أحياء دون خدش، وثلاثة أفراد مفقودين. عبر قائد فصيلة وجنديان للبحث عنهم. عثروا على فردين، وبقى فرد مفقودا. فى اليوم التالى. شوهد دافنا جسمه كاملا فى الرمال ماعدا وجهه للتنفس، وكان قد أبلغ الموقع كله بوجود جندى مفقود

فى الضفة الشرقية مما سهل اكتشافه فى مكمنه بفضل مئات العيون. أشير إليه بأن يبقى حيث هو حتى يحل الظلام لاستعادته. واستعادوه، لكن هل يعلم أحد مدى معاناة إنسان مدفون فى الرمال دون جرعة ماء فى جو من الفزع لمدة ٢٤ ساعة؟ وحده مخرج عظيم سينمائى قادر على أن يحول هذه اللقطة لفيلم يربطها بالعملية كلها، لكن من يسمع؟!

وبمناسبة ذلك العبور أتذكر شيئا يملؤنى اعتزازا وحكمة، وهو تكليفى من القيادات باستخدام قدرة الكشاف عندى مع حرفة الرسام الفنان فى رسم تشخيصى لبعض المواقع الإسرائيلية ونقاطها الحصينة. وبالفعل قمت بعمل عدة رسوم دقيقة تبين تفاصيل تلك المواقع، ومايحيط بها من ألغام وطرق وخنادق ومداخل ومخارج وممرات. وكان الهدف من ذلك استعانة المجموعات الفدائية بها عند مهاجمة تلك المواقع خلال عمليات العبور المستمرة لتلك المجموعات. وقد نجحت فى تنفيذ تلك الرسومات، وقد تم عرضها على الخبراء الروس أمامى، وقد أبدوا دهشتهم من القيمة التوضيحية الفائقة لرسوماتى، وكان تعليقهم غير عادى، فقد ذكروا أن صور تلك المواقع بالطائرات لاتغنى بالفعل عن مثل هذه الرسومات التى مع صور الطائرات تضمن أعلى نسبة من نجاح الأعمال التدميرية للمجموعات الفدائية، وأن تكليف هذا الجندى الرسام بها يجب أن يكون قاعدة تعمم. هذه القاعدة تتلخص فى أن يتعرف الجيش على خبرات كل جندى ثم يستفيد منها عند اللزوم.

كذلك - بمناسبة الخبراء الروس - أذكر استدعاءهم لى فى إحدى المرات فى وجود قيادات مصرية لسؤالى عن آليّة استخدامى لبندقية القنص فى ظروف الجبهة حينذاك، وعندما شرحت لهم علاقتى بتلك البندقية، وكيفية تغلبى على عيوبها أثنوا على ماسمعوه، وأهابوا بالقادة المصريين أن يرفعوا

درجة استعداد كل جندى لمستوى الجندى القناص أحمد نوار، ولايتم ذلك إلا بالبدء باختيار المكان المناسب لخبرات كل فرد حتى يتاح له استخدامها وتطويرها على مستوى إبداعى.

أحسست أننى محظوظ لوضعى التجنيدى الذى أتاح لى توظيف خبرتى وإبداعى فى خدمة الوطن.





بسم الله الرحمن الرحيم

١/٢/٧٠

وصية كتبها القناص المقاتل أحمد نوار لزملائه المقاتلين على خط النار في ١٩٧٠/٢/١م، تحسبًا لاستشهاده في سبيل الوطن في أي لحظة.



«١٨»

بروفات مبكرة لثغرة ١٩٧٣

موقع الديفرسوار، وما أدراك ماهذا الموقع، إنه الموقع الذى شابت من هول شجاعة أفراده هامات شباب جنود إسرائيل، وعرفوا الفزع فى أحلامهم، والخوف مع كل نَفَس من أنفاسهم. إنه الموقع الذى قضيت به خدمتى فى القوات المسلحة خلال حرب الاستنزاف، وهو الموقع الذى شهد كارثة الثغرة فى حرب أكتوبر العظيمة عام ١٩٧٣. كيف وقعت الثغرة؟ لعلنى أعلم وكل من خدم فى هذا الموقع، لكن من المسئول عن هذا (الكيف)؟ هذا ماينقصنا تحديده، حتى نعرف كيف يتسنى لنا إهدار أثمن المعلومات، وإسقاط أعز الخبرات وقت الحاجة إليها.

لقد كان الجيش الثانى يعلم (حسب شهادة قوادى)، بأن إسرائيل تعد الخطط لفتح ثغرة من هذا الموقع للاتجاه حول السويس ومحاصرة الجيش الثالث. وأن مخاوف عبور إسرائيل عند هذا الموقع لم تغادر القوات المرابطة به يوما واحدا. ولعل اليقظة والشجاعة والتطوير العسكرى المستمر لقوات الجيش الثانى قد حالت دون تحقيق ذلك خلال حرب الاستنزاف. لقد كانت خطة الثغرة مطروحة فى حالة عبور شامل لقواتنا، كما أنها كانت مطروحة خلال حرب الاستنزاف لإجبارنا على إيقاف هذه الحرب، لم يستطيعوا. لكن حسبما أظن، فإن اعتمادهم على قدرتنا الرائعة على النسيان أحيت

خطتهم من جديد بعد انتهاء حرب الاستنزاف، وإيقاف إطلاق النار على ضفتى القناة فى أواخر ٦٩ وأوائل ٧٠، ولاشك أنهم ظلوا يراقبون، وتحقق يقينهم فى حاسة النسيان عند المصريين. سأعود للحديث عن الثغرة بعد ذلك، لأحدثكم عن إحدى بروفات عبور الثغرة، فى أواخر ١٩٦٩ قبل وقف إطلاق النار. إنه أحد أيام يوم القيامة كما يقولون ذلك اليوم الذى تمت به هذه البروفة.

كنت قد خدمت فى الديفرسوار وهو لسان يمثل مدخل البحيرات المرة من ناحية الشمال لمدة تقترب من السنتين. ترقيت لرتبة رقيب، ودرست الموقع جيدا، واكتسبت كثيرا من الخبرات العسكرية، وأثبتُّ جدارتى كقناص، ونلت تقدير وتشجيع كل القادة على كل المستويات. كان قائد فصيلتى اسمه الملازم حامد عبد الرحمن، وقد أشرت إليه من قبل. قام الملازم بإجازة لمدة عدة أيام، وكلفنى قائد الكتيبة بأن أحل محله خلال إجازته، وهو موقف غير معتاد أن يحل جندى مجندا محل ضابط أثناء غيابه الطويل. لاشك أن ذلك كان بفضل تلك العلاقات الإنسانية الرفيعة التى ربطتنى بقادتى، والتى أساسها قيمة كبرى، وهى التفانى فى أداء الواجب، وخدمة الوطن، فى صدق لاتحتمل هذه الكلمات القدرة على التعبير عنه.

فى اليوم التالى لغيابه، قامت قيامة الجبهة. لقد بدأت المعركة بغارات مكثفة للطيران الإسرائيلى صَوّبَ الديفرسوار مباشرة. بدأت الغارات بإلقاء قنابل ٥٠٠ - ١٠٠٠ رطل بعد العشاء مباشرة، وكأنه الحلو يقدمه لنا الإسرائيليون. استهدفت القنابل مواقعنا الحصينة وخاصة ملاجئ الأفراد بالموقع. أمرت أفراد فصيلتى بالانتشار فى الحفر البرميلية المخصصة للجنود، كى يستطيع هؤلاء معاونة أسلحتنا للدفاع الجوى، والمشاركة فى إحداث ساتر نيرانى جوى يجبر الطيران على تغيير مساره أو أهدافه، وربما

الانسحاب، أو الضرب العشوائى قبل الوصول للهدف، وربما يترتب على ذلك أن يلقى الطيران حمولته على مواقعه الإسرائيلية ذاتها .

وقد صدرت تعليمات قائد الكتيبة وقائد السرية بتفويض قواد الفصائل بالرد بالأسلحة المناسبة، واستعمال مايلزم من تكتيكات طبقا للموقف ومستجداته، وهنا كان طيران العدو قد بالغ فى تنويع أسلحته ،فبعد القنابل الثقيلة انهمر مطر النابالم. وكان الهدف إحراق غابات أشجار الكازورينا التى تحمى تمويهاتنا وتدعم دفاعاتنا، وتغطينا إلى حد كبير، ولكن هذا الشجر النبيل قاوم حرائقهم، حيث كان يحترق اللحاء الخارجى، بينما تبقى إرادة الحياة داخل الجذع، مما يديم الشجرة شاهقة، بل وفى نمو. إن قلب الكازورينا ينبض بحياة لم يتدرب النابالم بحريقه على إطفائها. لقد صمدت هذه الأشجار سنوات طوالاً تتحدى كل وسائل الدمار، وإنها لمعجزة تجعلنا وتجعل العالم الذى تهدده حرائق الغابات بإعطاء وسام للكازورينا .

بعد حفل حرائق النابالم على أصوات الانفجارات الهائلة لقنابل الطيران العملاقة بدأت دانات الدبابات والهاون والمدفعية الثقيلة تصدر صفيرا ثلاثى التصفير قبل أن تنهمر علينا مثل رجوم الشياطين، أو شظايا الكواكب تهبط على الأرض فى انقضاض. صاحب المدفعية الصواريخ الحارقة أرض - أرض، والصواريخ المسممة جو - أرض، تلك الصواريخ التى تنفجر ناثرة مئات المسامير ذات الأسنان المسممة، التى إذا اخترقت الجسد تقتل فى الحال. هذه المسامير، التى أسنانها تشبه الزعانف مع الحركة الدوارة المركزية للصاروخ، تبذر الجو بحثا عن جسد تقتله بموادها السامة الفتاكة. لم ينس العدو مشاركة هذا الفرح الدامى الثقيل بطقطوقات غنائية لأسلحته الخفيفة. لقد كان هجوما شاملا لكل مخترعات الموت المستعجل والدمار.

ظن الجميع أن العدو بدأ هذا القذف الشامل لتغطية عبوره القناة، وهذا

توقع دائم مع كل قذف، ولكن التوقع لم يكن قط قويا مثلما حدث لنا فى تلك الليلة. ولهذا كنا دائما نراقب بيقظة طوال الليل القناة، ومدخل البحيرات المرة المواجه للموقع الإسرائيلى.

ردت جميع الأسلحة المصرية الثقيلة على الهجوم بجانب المدفعية المضادة، وساتر النيران الذى أقمناه بمئات من رشاشاتنا. الوحيد الذى لم يشارك فى هذه الموقعة مع العدو هو طيراننا لاعتبارات تكتيكية، ترتبط بضيق مكان المعركة فوق رءوسنا. لقد كانت ليلة من ليالى العمر القاسية إلى حد الهول المريع. استمر القذف سبع ساعات مليئة بالمفاجآت والترقب من الناحيتين.

وقد لاحظت خلال هذه الليلة العجيبة ما أكد تصوراتى السابقة وخبرتى بالعدو. إنهم عندما تطول ساعات الضرب، فإنهم يتابعون النتائج ويطورون الأساليب. إنهم يستخدمون أسلوب التكتيك المتحول، حتى لايستطيع الآخر أن يواجههم بخطة. إذن المعركة ليست استمرارية القذف، ولكن حسن استخدامه وتطويره طبقا لنتائج متابعة ذكية. وهكذا فكرت فى وسيلة لمفاجأة العدو وترويعه، حتى نسكته ويتعاظم مانسببه له من رعب. وكان بالفعل ردنا على العدو يتناسب إلى حد كبير مع تقنياته وتحويراته، فدفاعنا الجوى كان قويا، ومدفعيتنا المضادة للطائرات كانت متحركة على شاسيهات دبابات لملاحقة الطائرات من ناحية، ولتجنب أن تصير هدفا للقذف من ناحية أخرى، ومع حزمة من الأسلحة زادت الفعالية، حتى إننا نجحنا فى صنع ساتر من النيران غطى موقعنا جميعا. تلقينا مساعدة مضادة للطيران أيضا من مدفعية المؤخرة. لقد واجهنا العدو بمنظومة لاتهدف لإسقاطه، بقدر ماتهدف لمنعه من تحقيق أهدافه، بل أسقطت ٦ طلعات طيران إسرائيلى حمولتها على مواقع إسرائيلية لأن ساتر النيران الذى صنعناه،

وحّد الضفتين وغطى سماء موقعهم مع سماء موقعنا فصار خطرا على طياراتهم، وهى مازالت فى عمق سيناء، كما سقطت حمولة طلعات كثيرة فى مياه قناة السويس.

بعد ٧ ساعات صار موقعنا شعلة من اللهب والحرائق ولاسيما بعد اشتعال نيران كثيرة بالغابة. توقف الضرب، ولم يعبر الإسرائيليون، وإنما ظنوا أن موقعنا قد تلاشى من الوجود، وأكد ظنهم لدينا صعودهم بكثافة فوق النقطة الحصينة والسد الترابى يصفرون ويصرخون من البهجة. اعترى قادتنا فى المؤخرة نفس الشعور عندما رأوا صورة الحرائق من بعيد، وتوالت الإشارات والاتصالات طالبة إحصاء الخسائر، وكان جوابنا، لاخسائر، فيعودون للسؤال غير مصدقين، والشىء الذى لا يصدق فعلا هو انعدام الخسائر فى صفوفنا ماعدا احتراق بسيط فى فخذ أحد الجنود بسبب النابالم، وتم علاجه مبدئيا ثم إرساله إلى مستشفى الجلاء. والخسارة الوحيدة كانت استنفاد ذخيرة الدفاع، وطلبت من قائد السرية إمدادى بالذخيرة، فاعتذر عن عدم إمكان ذلك خلال الضرب.

وخلال فترة هدوء نسبى مررت على كل الحفر والملاجئ لأطمئن على كل الأفراد، وعندما وصلت للسان، وتطلعت وراء الساتر الرملى المصرى، رأيت الفرح اليهودى، وخطرت على بال الفتى القناص اقتناص فرصة ظن هؤلاء البلهاء بأنهم قضوا علينا، فأصدرت أوامر إلى عريفين بجمع فصيلتى فورا واتخاذ مواقع الضرب من دفاع الساتر الترابى، مُخْبِرًا لهما بتجمع الإسرائيليين مكشوفين فى الجانب الآخر. كانت الخطة إطلاق دفعة سريعة مكثفة من النيران عليهم لحصد أكبر عدد منهم قبل أن يهرعوا لمخابئهم. كنا نراهم بوضوح بفضل ارتفاع ألسنة لهب النابالم.

توسطتهم وأمرتهم بإطلاق النار بسرعة فائقة، بمعنى أن يضغطوا على

زناد أسلحتهم بمجرد انطلاق أول رصاصة من مدفعى الرشاش (حمولة ١٠٠ طلقة)، وكانت أول مرة أطلق فى الموقع النار من سلاح غير بندقيتى القناصة. وانطلقت رصاصاتنا فى توقيت واحد وبسرعة خارقة. كان رد الفعل صرخات وأصوات متألمة، وحققنا خسائر ٨٠٪ من بين الأفراد المحتفلين بهلاكنا وانتصارهم. كان عملا جسورا يرتبط بمبدأ سرعة تطوير تكتيك التعامل مع العدو، والحرب خدعة. إنهم يفعلون نفس الشىء من ساعة لساعة ومن يوم ليوم.

كانت الضربة موجعة حينما أسقطنا من بينهم الخسائر نفسها التى ظنوا أنفسهم أنزلوها بنا. عادوا للضرب لمدة ساعة استنفدوا فيها أطنانا من الذخائر دون جدوى. وتوقف الضرب وكانت النتائج إيجابية لصالحنا: أجبرنا طيرانهم على تغيير أهدافه وإلقاء أجزاء من حمولته فى الماء أو على مواقع إسرائيلية، ولم يستطيعوا تدمير موقعنا أو مدفعيتنا فى المؤخرة، وأخيرا كبدناهم خسائر فى الأفراد كبيرة خلال احتفالهم الذى تحول إلى مأساتهم. هانحن أحياء ونذكّر الإسرائيليين بحرب الاستنزاف، التى قمنا خلالها فعلا باستنزافهم بضراوة، فسلوكنا كان هجوميا، وفى كل هجوم لنا صيد أو تدمير، وردهم خسارة أطنان هائلة من ذخائر غالية السعر والكلفة، وفى النهاية كانوا يعرفون الخوف الحقيقى وافتقاد الاطمئنان.

ونعود لقائد سريتى الذى رفض إمدادى بالذخيرة، أو على الأقل إصدار الأمر باستخدام بعض ذخيرة احتياطى الهجوم مادام يظن تعذر تعزيزى بالذخيرة. لم يكن من الممكن وقف إطلاق النار، وكشف المواقع المصرية للطيران الإسرائيلى، فأصدرت أمرا على مسئوليتى باستخدام بعض ذخائر احتياطى الهجوم. فى اليوم التالى حَمّلنى قائد السرية إلى قائد الكتيبة للتحقيق معى.

وأمام قائد الكتيبة شرحت أننى أفخر بما فعلت، فاستهلاكنا آلاف الرصاصات، فى الخمس ساعات الأولى، أنقذ المواقع المصرية من خطر محقق كان وراء غارات للطيران استمرت سبع ساعات، مع كل أنواع أسلحة العدو الأخرى، وأن التوقف عن الضرب بحجة انتهاء الذخيرة فى الساعة الأخيرة كان كمثل من يسقط ميتا قبل خط نهاية السباق بمتر برغم تقدمه على المتسابق الآخر. وإذا صح توقع الاستخبارات فقد حلنا دون إتمام عملية عبور كان مخططا لها. القائد ابتسم لى وحيانى شادًّا على يدى. إنه يفهم تماما ماقمنا به. شعرت بارتياح، وكان هذا شأنى مع قائد كتيبتى أحد الأبطال العظام لحرب الاستنزاف وحرب أكتوبر، لأنه قائد بعيد النظر الاستراتيجى ذكى غير بيروقراطى، مع شجاعة وإقدام بلا حدود.

فوجئنا بتكريم قيادة الجيش لنا حيث أرسلوا لنا وليمة هائلة من المشويات والحلوى الرفيعة المستوى والفاكهة ذات الصيت العريض فى ذلك الزمان، وكانوا يسمونها التفاح المستورد. لقد صدر أمر تكريمنا من عدة قيادات: قائد الجيش الثانى، وقائد الفرقة، وقائد اللواء. لقد أحسسنا بصدق تصورنا عن قيمة عملنا الجسور والشاق فى إحدى ليالى العمر التى لا تنسى، والتى شهدنا فيها كما ذكرت إحباط أول بروفة أو تجربة لشق ثغرة سيطلق عليها بعد ذلك فى حرب أكتوبر لقب الثغرة، وهو لقب لايشبه النكسة، لكنه اسم لحقيقة مؤلمة وقعت. على الأقل بدأنا نسمى الأشياء بأسمائها.





« ١٩ »

وكانت الثغرة

والآن أحس برغبتى فى تناول أمر مهم أزعجنى إلى حد لايحتمل عندما كنت فى إسبانيا عام ١٩٧٣، وكنت قد أنهيت خدمتى العسكرية وسافرت إلى إسبانيا عام ١٩٧١ فى بعثة على منحة مقدمة للدولة من حكومة إسبانيا. إنها شجون الثغرة الشهيرة، التى أحدثها العدو الإسرائيلى فى منطقة الديفرسوار بعد نجاح الجيش المصرى فى عبور قناة السويس، وتدمير خط بارليف، وتبديد كل التوقعات الاستراتيجية العالمية التى تنبأت بتدمير ٨٠٪ من الجيش المصرى فى حالة مهاجمته لخط بارليف عبورا للمانع المائى. لقد كان عملا عسكريا عبقريا ذروته اختيار أماكن العبور وزمانه، مع خطة رائعة التنفيذ لخداع العدو ومفاجأته فى مقتل.

لم يكن هذا النجاح من فراغ، وإنما هو ثمار إعداد عنيف وجاد للجيش المصرى بدأ بداية مظفرة بحرب الاستنزاف التى علمت الجيش المصرى الكثير خلال حرب حقيقية وليس فحسب خلال مناورات تدريبية. إنها ست سنوات من العمل الشاق فى أصعب الظروف بين نكسة ٦٧ وظفر ٧٣.

وبحكم وجودى فى منطقة الديفرسوار منذ أواخر ١٩٦٨، وحتى وقف إطلاق النار، ثمّ صدور قرار عبد الناصر بتسريح أساتذة الجامعة من الخدمة مع المعيدين، وذلك للعودة إلى بحوثهم العلمية حتى لايفقدوا

قدراتهم البحثية، وحتى لا يتأخروا فى الحصول على درجاتهم العلمية. لم أنس قط الديفرسوار وأحراشها وغابتها، ولم أنس استهداف هذه المنطقة بشكل دائم لم يتكرر مع أى موقع مصرى آخر عن طريق العدو الإسرائيلى، الذى شمل استهدافه لهذه المنطقة كل المستويات واستعمل كل الأسلحة، وكان على مدار الـ ٢٤ ساعة يوميا. من ثمَّ كان لهذه الأبعاد التكتيكية المتنوعة والمتجددة والتجريبية للعمل العسكرى الإسرائيلى هناك هدف استراتيجى مرتبط بالطبيعة الجغرافية والطوبوغرافية البالغة الخصوصية لهذا الموقع فى مدخل البحيرات المرة. وهذا يفسر التمركز أمامه بأكثر نقاطه الحصينة قوة وتحصينا، وعلى أعلى مستوى علمى وتكنولوجى.

إن التراشق اليومى، الذى أخذ شكل الرتابة والتكرار الممل لم يكن رتيبا، ولامتكررا بمعنى ما، ولاسيما فى وجداننا وأعماق نفوسنا، التى ترى الواجبات الدامية لكل يوم مثل سلّمة تصعد بنا تدريجيا للخطة الحاسمة، التى لم تكن لتتحقق قبل أن يستعيد جيشنا ثقته فى نفسه، وتستعيد الأمة ثقتها فيه، وكان جهد كل يوم ينمى هذه الثقة، التى ذروتها إزالة آثار النكسة من النفوس، ثم إزالتها على الأرض بتحرير أرض سيناء الكسيرة تحت أقدام الغزاة، الذين نصبوا شباكا وقع فيها الجيش المصرى داخل مصائد فئران عام ١٩٦٧ فى معمعة خداع كبرى، صنعنا نحن لهم فيها تلك الشباك بأيدى الخيانة والصراع على السلطة. لم تكن سيناء وحدها تدفع ثمن تلك الخيانة، ولكن دفع ذلك الثمن باهظا الجيش المصرى، الذى وصموه بهزيمة كبرى فى حرب وهمية لم يدخلها، والذى قدم خلال تلك المصيدة الآلاف المؤلفة من الشهداء والجرحى والمحزونين بمعاناة تفوق الطاقة.

خلال حرب الاستنزاف كان العدو يستخدم كل يوم تكتيكا جديدا أو يطوّر من تكتيك سابق، وكان علينا دراسة ذلك وملاحقته والرد عليه ليس

فقط برد فعل قوى، لكن أيضا بمبادرات تكتيكية لاتخطر على بالهم، مع تنفيذ مانتلقاه من تعليمات يومية برفع الاستعداد إلى حدوده القصوى. وتطور جانب المبادرة فى الجانب المصرى عندما وصلت إلينا جماعات الصاعقة، التى بدأت فى ممارسة عمليات عبور متوالية، أحدثت خللا فى التوازن العسكرى، أو الجسم الهندسى الإسرائيلى. أقول ذلك لأصف ماسمعته عندما توطدت علاقاتى بعد فترة بقادة هذه القوات الخاصة، عند سؤالى عن سر التنبيهات اليومية لدينا برفع درجة الاستعداد تحسبا لأى عبور أو هجوم إسرائيلى، وخاصة أننا هنا للدفاع عن مصر، ونحن فى غاية الاستعداد للمواجهة بشكل دائم كما ينبغى أن يكون، وليس فحسب عندما تأتى معلومات تؤدى إلى تلك التعليمات المتكررة أكثر من اللازم. إننا تعلمنا هنا أن كل جندى وضابط فى حالة استعداد لاتخلو أبدا من توقع دائم لأى محاولة من العدو، أليس ذلك هو الشىء الطبيعى؟

كررت هذا السؤال على مدى ٦ أشهر، وكانت إجابة القيادات الخاصة التى أكدها لى قائد كتيبتى الهمام بأن المخابرات المصرية قد اكتشفت خطة إسرائيلية تجعل منطقة الديفرسوار مستهدفة بشكل استراتيجى، لأن تلك الخطة معدة للتنفيذ حال عبور الجيش الإسرائيلى إلى الضفة الغربية لقناة السويس على مستوى المواجهة، وتقوم على أساس فتح ثغرة فى الديفرسوار يعبر منها جيش إسرائيل إلى الغرب ثم ينطلق سريعا وراء مؤخرة الجيش المصرى فى اتجاه الجنوب حتى السويس، ويتم فتح الثغرة بضرب مكثف يشغل الموقع المصرى بالرد عليه، بينما تتسلل قواته فى خفاء عبر الأحراش والظلام.. وكان ردى، وهل ذلك ممكن ونحن الآن مهما كانت كثافة الضرب الإسرائيلى لانغفل ثانية عن مراقبة المياه لمواجهة أى احتمال لعبورهم؟ وكان رده، هذا صحيح، لكنه يتم بأعلى كفاءة الآن بفضل تلك التعليمات المتكررة التى دفع القيادة إليها معلومات المخابرات المصرية.

وهذا ما أدهشنى بل وأفزعنى عند حدوث الثغرة وعدم السيطرة عليها، والأغرب حدوثها بدقة طبقا لمعلومات مخابراتنا، فقد وصلوا للسويس وأصبح الجيش الثالث محاصرا تماما فى الضفة الشرقية.

والتحليل السميولوجى لحديث صحفى أدلى به الفريق الجمسى عن الثغرة يدفعنا إلى معرفة ماذا تعنيه فى حديثه عبارة حول قلة وعدم دقة المعلومات عنده. لقد حددها بقوله «فأول بلاغ (من الجيش الثانى) وصل لنا هو أن القوات الإسرائيلية عبر منها من ٧ إلى ١٠ دبابات فى صباح ١٦ أكتوبر كانت موجودة على الضفة الغربية، وظهرت الحقيقة أنها كتيبة دبابات من ٣٠ دبابة، وحوالى كتيبة مظلات فى ذلك الوقت، وترتب عليه عدم سرعة اتخاذ الإجراءات المضادة». لم يقصد بالمعلومات المعرفة المسبقة بالخطة الإسرائيلية. وهذا يعنى أنه يتحدث عن معلومات استطلاعية راهنة أو حالية فى رصد العبور الإسرائيلى دون مواجهته، ومن الطبيعى أن هناك عناصر استطلاعية غير كافية أو غير مدربة، ولعلنا نفهم خطأ تقدير عدد الدبابات على الضفة الغربية لاختفاء باقى الدبابات فى أحراش وغابات الديفرسوار، لكن كيف يخفى هبوط بالمظلات من فوق رءوس المستطلعين. إننا نفهم من ذلك عدم وجود استطلاع بالمرة فى شاطئ الديفرسوار، وأنه استطلاع تم رصده من بعد. ونفهم ذلك أكثر من قوله الغامض «إن القوات الموجودة فى الغرب فوجئت بعبور القوات من الشرق إلى الغرب». إنه يكرر لفظ القوات دون أن يصفها هل هى مصرية أو عربية شقيقة أو إسرائيلية. وهذا الغموض سنوضحه لاحقا.

المهم إن تحليل خطابه كله يفيد بظهور مفاجئ لقوات إسرائيلية على الضفة الغربية، انشغل الجانب المصرى بإحصائها، وليس بمواجهتها. وتضاربت الإحصاءات، دون أية مواجهة، وهذا طبيعى، بل إننى أظن أن

المعلومات الأولى (٧ ـ ١٠ دبابات) كانت دقيقة، لأنه عند مراجعتها وإعادة الإحصاء دون أية مواجهة كانت هناك قوات أخرى تعبر ومظلات تهبط إلى غير ذلك من تدفق تيار العبور الإسرائيلى. والسؤال الملح المزعج، كيف حدث ذلك؟ ولماذا يتحدث الفريق الجمسى حديثا يشوبه الغموض، لكنه يعترف بأن الجانب المصرى فوجئ بقوات إسرائيلية فى الغرب عبرت آمنة مطمئنة، بل لم تلق مقاومة من أى نوع لبعض الوقت (لأسباب غير مقنعة فى حديث الفريق الجمسى) الذى يتسم بالغموض. لماذا؟

هناك سبب واضح من مجمل حديث الجمسى، وهو أن القيادة المصرية، بعد أن نجحت فى عبورها نجاحا أذهل العالم كله، أذهلها (ولها كل الحق) نجاحها المبنى على العلم والإخلاص والشجاعة التى تجاوزت الحدود للجيش المصرى، فلم تتصور قط أى أحتمال لعبور إسرائيلى مضاد، بل ونسيت الثغرة الاستراتيجية الطبيعية المفصلية بين الجيش الثالث والجيش الثانى، والتى اسمها الديفرسوار، والدليل على ذلك سحب الكتيبة ٣٦٠ مشاة، وماخلفها من مدفعية ثقيلة وهاون وصواريخ (مدفعية الهاوزر الجزائرية) التى جعلت موقع الديفرسوار المصرى أقوى المواقع المصرية حتى نهاية حرب الاستنزاف، وحتى وقف إطلاق النار فى منتصف عام ١٩٧٠. نعم، لقد سُحِبت قوات الموقع قبل حرب أكتوبر إلى معسكرات خلف مدينة الإسماعيلية لإعدادها للعبور، وحلت محلها قوات رمزية من إحدى الدول الشقيقة.

هذه القوات الرمزية لم تكن تعلم شيئا عن جغرافية ذلك المكان أو طوبوغرافيته، ولم تكن تعلم (ماعلمه الجيش الثاني يقينا) عن أن الموقع هو الثغرة التى حددها الإسرائيليون حال عبورهم. لم يكن ـ تأكيدا. من الحكمة التخلى عن تحصينات هذا الموقع بأى حال من الأحوال، ولو من أجل

استخدام مالدينا من معلومات استخداما عكسيا، أى فتح ثغرة وعبور قواتنا لنجدة أى قوات مصرية فى شرق القناة بعد عبورنا لو احتاجت لهذه النجدة لأى سبب من الأسباب. كما أنه كان من الحكمة ترك بعض فصائل الكتيبة ٣٦٠ مشاة ولو للاستطلاع لخبرتها بخفايا الموقع وعوراته الاستراتيجية.

حقا ـ كما يقول الجمسى ـ لقد انتصرت إسرائيل فى موقعة الديفرسوار (كما أطلقوا على الثغرة) مقابل ٥٠ انتصارا للجيش المصرى ليكون فوز الجيش المصرى بخمسين هدفا مقابل هدف واحد لإسرائيل، مما يجعله فوزا ساحقا ماحقا، لكن ما أحلى أن لوكان فوزا بخمسين هدفا مقابل صفر هدف لإسرائيل.

لابد لى أن أذكر أن تحليلى لموقعة الديفرسوار أو الثغرة هو ضرورة أملاها علىَّ هذا الموقع وخدمتى فيه، وحبى لوطنى، وضرورة كتابة تاريخنا بحلوه ومره. كان من الممكن ألا تقع الثغرة، لولم نهدر بعض خبرة حرب الاستنزاف ولو لم نفكر فى إدارة شئون المعركة فى الشرق بعد العبور، دون أن نضع فى اعتبارنا خطط العدو المعدة من سنوات للعبور المضاد. لكن الأخطاء البشرية مسموح بها، وغير المسموح به هو عدم فهمها وتحليلها، كما لم نفهم ولم نحلل انكسارة يونيو ٦٧. الخلاصة أن انتصار إسرائيل، فى موقعة الديفرسوار، لم يكن لأية براعة منهم أو تفوق على المحارب المصرى، بقدر ماكان خطأ بشريا مصريا مفهوما، ومسموحا به فى حدود نسبة الأخطاء البشرية فى أى عمل إنسانى عظيم مثل إنجاز ٦ أكتوبر الذى يعد من أعظم الإنجازات العسكرية على مر التاريخ، ولاسيما استراتيجيته التى لم تقصد الحرب لذاتها، وإنما إجبار العدو على جلوس هادئ على مائدة مفاوضات، لاستعادة أرضنا. وقد حققت الحرب هذا الهدف العظيم، بجانب أهداف أخرى مازالت تتحقق.

« ٢٠ »

خاتمة: ألف ليلة وليلة

لعل هذا الفصل هو أهم فصول هذه الذكريات، لأنه صرخة أرجو ألا تضيع فى وادى العدم. صرخة من أجل رفع قيمة المواطن المصرى على يد كل مواطن مصرى آخر. لابد من إعلاء قيمة الفرد بأقصى مانستطيع من إعلاء لهذه القيمة. إن الفرد إنسان كرمه الله، وقيمته مقياس لحضارة الوطن وتقدمه. الخلاصة: إننى كنت جنديا بين آلاف مؤلفة من الجنود المصريين الذين شاركوا فى حرب الاستنزاف، وهناك آلاف مؤلفة شاركت فى حروب قبلها، أو بعدها، وآخرها حرب الخليج. وسوف أتحدث هنا فحسب كجندى من جنود حرب الاستنزاف، مع انطباق ذلك على كل جندى مصرى بشكل عام فى السلم أو الحرب أى حرب. إن أوضاع حرب الاستنزاف أصابت كثيرا من الجنود الشجعان أصحاب التضحيات العظيمة بخلل فى الصحة البدنية والنفسية، ولن أكرر هنا خسائرهم الاقتصادية القاتلة أحيانا نتيجة ترك أعمالهم وشئون حياتهم زمنا طويلا لأداء واجب خدمة الوطن. ولن أتكلم عن المتاعب النفسية والاقتصادية والتربوية التى حاقت بأسرهم لتصل إلى حد المأساة. لن أتكلم عن هذا كله: فمن يعنيه أمرهم؟ إنما سوف أكتفى بالحديث عن الآثار المرضية على المستوى النفسى والبدنى، تلك الآثار البائسة التى لاحقتنى زمنا حزينا، ولا أظن خلو أى زميل

لى من بعضها . فماذا صنعنا لهم من عون ومساندة بعد أن أدوا الواجب وحرروا الأرض؟ تركنا معظمهم وحدهم فى معاناة دون حتى الإحساس بها . إن البعض منهم كما مر بى فى بعض الأحيان يشعر بالحزن لأنه لم يستشهد فينقذه الموت من أهوال المرض. كم من الجنود يعانون الآلام النفسية، وكم منهم بقى عموده الفقرى سليما بعد حياة المخابئ والقبوع فيها الساعات الطوال على مدى الشهور والسنين فى أوضاع تشبه وضع الجنين فى بطن أمه!

بدأت أعراض مرض نفسى تجتاحنى بعد وقف إطلاق النار. لم أعرف طبيعة ذلك المرض، أكثر من إصابتى بآلام نفسية موجعة مع شىء من الاكتئاب، ولعل سبب ذلك رؤيتى للجنود الإسرائيليين على الضفة الأخرى يهنئون بوقتهم فى تهليل ومعابثة ولعب فى ظل أمن رائع حققه لهم وقف إطلاق النار. كان الضبط النفسى أمرا صعبا، حتى أنى فكرت جديا بالعودة إلى القنص، وسألت قائد الكتيبة ماذا لو فعلتها؟ قال لى : إنه سيكون عملا منفلتا لايمكن حساب عواقبه. لحسن الحظ انتهت فترة تجنيدى بقرار من الرئيس عبد الناصر بتسريح المعيدين وأساتذة الجامعة. وعدت إلى بيتى وكليتى. وبدأت الحياة المدنية من جديد. وكان الكابوس.

كلما نظرت من النافذة، ورأيت أحد المارة يقبل، أظن أنه هدف للقنص. إذا رأيت أحدا يطل من نافذة تتوتر أعصابى وآخذ وضع الاستعداد، وأتحسس فى الفراغ بندقيتى القناصة غير الموجودة. كنت أربط الأشخاص الذين أراهم بضوء الشمس، ومدى صعوبة أو سهولة صيدهم. كما أن طول مكوثى أراقب بالبيروسكوب أو خلف تلسكوب البندقية جعل بصرى مشدودا دائما فى الفراغ أو اللامعلوم، وأحس بوضع الكمون والاستطلاع، وأنا جالس على كرسى مريح فى بيتى. كان مشهد النيل بالليل فى رحلة لى للأقصر

وأسوان هو الكتلة السوداء لوحش موقع الديفرسوار. كانت مياه النيل فى مجراه العريض هى مياه قناة السويس. لقد عشت فى الديفرسوار خلال وجودى فى رحلة نيلية إلى الأقصر وأسوان. لقد صار مخزون ذاكرتى الذى أملكه عن تلك الفترة فيما يتعلق بكل الحالات التى عشتها يتم استدعاؤه فى ظروفى الجديدة بحوافز أعرفها أو لا أعرفها، فيتجسد أمامى وكأنه واقع .. مازال هذا الاستدعاء يقع لى حتى الآن.

لقد مررت على بعض الأنهار فى ألمانيا وهولندا، وكان على شطها غابات شاسعة فتمثل لى موقع الديفرسوار وعودة بانورامية تشد معها كل الأحداث على هيئة شريط سينمائى، بل الأدق على هيئة تكنولوجيا تخييل الواقع. Virtual reality وأظن أنه من الصعب زوال مفعول هذا المخزون، وهذا الارتباط بالديفرسوار، وهذه الحواس التى اكتسبتها هناك مثل حاسة تمييز الأصوات بل واستقبالها عند لحظة صدورها من مصدرها الرنان، تلك الحواس التى ارتبطت بالطيران وقدوم غاراته، ودانات المدافع ومختلف أنواع القنابل والرصاصات الرنانه الطنانة، والتطور فى درجات الصوت وقراره وشدته لطنين دانة منذ خروجها من ماسورة مدفع واختراقها الهواء مقتربة حتى تسقط على الأرض.

فقد حدث لى فى السنوات الأولى لخروجى من الجيش أن عشت حاسة الأصوات كمعممة من الفزع، فأى صوت مفاجئ فى الشارع كانفجار عجلة سيارة مثلا، أو أى صفقة للباب فى البيت أو حتى سقوط ملعقة أو طبق، أو أى شئ شبيه فى العمل كان يثير فزعى، ويقيم جسمى ويقعده، وإذا تصادف نومى مع حدوث صوت أهب جريا مغادرا النوم وسريرى فى آن. أكثر من ذلك عند مرور الطيارات العادية فى الجو، أسرع بتمييز وجود أزيزها من بعد وأتحفز فى انتظار غارة.

لكن الشيء الفظيع ماحدث لى من ١٩٧٠ - ١٩٨٥، أى لمدة خمسة عشر عاما طويلة لانهائية الطول. كنت أعانى الأرق وعدم القدرة علي النوم ليطول يومى، وتمر السنون بطيئة مؤلمة ومرهقة، فكلما توجهت لسريرى للنوم، أغلق النور وأستلقى، وأستقبل طائفا كابوسيا يطبق على أنفاسى، وأشعر وكأنى أحتضر، فأسرع إلى غرفة المعيشة، وأظل أقرأ القرآن، أو أقرأ شيئا للنسيان والتسلية مثل الصحف أو الروايات، إلى أن أجهد نفسى ثم أتوجه للسرير.

ظننت أن تلك أعراض مؤقتة سوف تتلاشى بمرور الوقت. لم تذهب، ورافقتنى ١٥ سنة مستطيلة. هل يتذكر أحدكم ليلة عانى فيها الأرق بعد كابوس مخيف، وجافى جنبيه النوم؟ هل يتذكر أحدكم نفسه ليلة يتقلب على السرير مثل طائر ذبيح وقد آلمه جسمه فى كل بقعة من جلده خشية أن تغمض عيناه فينقبض صدره وتتحشرج أنفاسه ويموت؟ بحياتكم لم أعانِ ذلك ليلة واحدة فقط بل آلاف الليالى الشاسعة الظلام. لقد كانت ألف ليلة وليلة من الأرق. كان الشطر الأول من تلك الليالى أفظع من الألم نفسه بفضل سعال مُمزِّق يرافق الأرق ليشكلا معا عصابة من الأذى للعبد لله، وتلك قصة أخرى لمرض آخر سأحكى ملحمته بعد قليل.

قررت الذهاب إلى طبيب نفسى، ليقينى بأننى لست مصابا بأى مرض عضوى. ذكر لى الطبيب أننى مصاب بمرض اسمه (الخوف). ولاخوف من مرضِى (الخوف)، لأنه مرض مصاب به كل الأشخاص، لكن بدرجات شدة متباينة، فهناك من يخاف إلى حد الموت إذا رأى فأرا، وهناك الشجعان الذين يقتلهم الظلام من الخوف والرعب. آخرون يخافون الحيوانات أو الحشرات، وغيرهم يرتعدون من الارتفاعات العالية أو ركوب الطائرات. وختم الطبيب أمثلته بقوله (واللى يخاف من عفريت يطلع له). ذكر لى أن لديه نوعا جديدا من الدواء أثبت فاعليته. أعطانى ٣٠ قرصا لتناولها على

مدى ٣٠ يوما. وبالفعل شعرت بتحسن بعد أسبوع، وبعد عشرين يوما تلاشى معظم المرض، وفى نهاية الشهر بدأت أنام ملء جفونى. أدهشنى سحر هذا الدواء، وسألت الطبيب عنه، فقال لى إنه مثل (أستيكة) التلميذ، يمحو من الذاكرة مجموعة أشياء وقعت ومؤثرات لاصقة بالذاكرة. وطلب منى أن أحاول أن أتذكر الحرب وما وقع لى فيها قبل النوم لبعض الوقت. كنت أفعل خائفا من معاودة الأرق لى، ولكن حدث أننى كنت أدخل مملكة النوم الهادئ سريعا لألحق بأليسيا فى أرض العجائب.

هذه كانت بعض أهوالى النفسية، فما شأن الهول المفزع البدنى؟ إنها تبدأ بانقلاب زورقنا فى منتصف القناة وقضاء أكثر من ٢٠ دقيقة فى عدله ونحن فى المياه، ثم ضياع أسلحة قائد مجموعة العبور وثلاثة جنود آخرين، وصدور الأمر لنا بعدم الانصراف حتى نستعيد الأسلحة من قاع القناة، فأمضينا أكثر من الساعة بكامل ملابسنا مبتلة. بعدها أصبت بنزلة شعبية. ظهرت ثم أشتدت فى اليوم الثانى والثالث. أرسلونى لطبيب الموقع، فأعطانى بعض الأدوية ومع ذلك ازداد المرض، فأرسلونى إلى مستشفى الجلاء، وقد ازداد سعالى وأصبح مؤلما ومخيفا. تلقيت العلاج وتحسنت صحتى ظاهريا، وعدت للموقع. لم يغادرنى السعال. نزلت إجازة بعد شهر ونصف الشهر، وذهبت لطبيب فأعطانى (سيدالين) و(برونكستال) وبعض الأدوية الملطفة للكحة. واستمرت هذه الحالة وقتا طويلاً.

وهكذا لم يغادرنى السعال وبعض آلام الصدر بعد خروجى من الجيش والتحاقى بالكلية ثم سفرى إلى إسبانيا عام ١٩٧١. وفى إسبانيا حيث تجرى فحوص وتحليلات وأشعات شاملة، قبل تشخيص المرض وتحديد العلاج، قررت إخضاعى لتلك الفحوصات لإحساسى بشىء خطير غير منضبط أحس به مصاحبا للسعال. صحبنى للطبيب صديق مغربى، وهو أيضا

صديق للطبيب، وكان يترجم بينى وبين الطبيب الذى ذكر لى أننى مصاب بمرض خطير يسمى (الدرن الرئوى). نعم لقد أصاب الدرن الرئة اليمنى، وامتد للقصبة الهوائية. نصحنى الطبيب بدخول المستشفى فورا لخطورة حالتى، فقد طال بى الدرن دون علاج منذ عامين كاملين.

حكيت للطبيب بناء على طلبه تاريخى المرضى منذ إصابتى بالنزلة الشعبية. سألنى عن نوعية الطعام الذى كنت أتناوله عند إصابتى بها، بجانب أسئلة أخرى أجبته عنها جميعا. قال لى لقد تضافرت عليك كل عوامل الإصابة: جرح الرئة بالسعال دون علاج حقيقى للنزلة الشعبية، وسوء التغذية، ووجود بكتريا الدرن (التوبير كلوسيس) فى الهواء. ذكر لى أن العامل المحدد بين هذه العوامل هو سوء التغذية. وذهبت إلى المستشفى فورا لتبدأ معركة أخرى حزينة مع المرض الثانى والحاجة لعلاج ثان من بركات الاشتراك فى الحرب. وأدركت من كلام الطبيب النفسى عن مرض (الخوف) إن الشجاعة ماهى إلا خوف مكبوت وكلما ازدادت الشجاعة كلما ازداد الخوف المكبوت إلى أن يحين انفجاره، وأن مرض الدرن هو جوع وسوء تغذية متراكم إلى أن يتاح للبكتريا مهاجمة جهاز المناعة، وقد أنهكه الجوع وسوء التغذية.

وذهبت إلى المستشفى بعد موافقة الأستاذ الراحل الفنان «عز الدين حمودة»، وكان مستشارنا الثقافى فى إسبانيا، ومديرا للمعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، وأستاذا بكلية الفنون الجميلة، أى أنه كان أستاذى. كان العلاج طويلا، وعندما بدأ المستشفى فى إرسال فواتير العلاج إلى السفارة، وأرسلتها بعدها السفارة إلى مصر لإدارة البعثات، طلبت إدارة البعثات عودتى للعلاج بمصر. وتلك مأساة ورب الكعبة!

رفض عز الدين حمودة خروجى من المستشفى، واتصل بالسفير (وكان

ضابطا سابقا)، وهذا بدوره اتصل بوزير التعليم مندهشا من طلب عودتى مع احتمال موتى خلال السفر، طالبا منه معاقبة المسئول عن هذا القرار. وتساءل السفير: هل من الممكن أن نعامل جنديا حارب من أجل الوطن، وأصيب بهذا المرض بسبب عمليات الحرب بهذا الأسلوب؟وحتى إذا لم يكن جنديا محاربا، هل من حسن الفطن معاملة معيد بالجامعة التى يرأسها الوزير بتلك القسوة واللامسئولية؟

وافق الوزير بصرف علاج ٢٠ جنيها مصريا شهريا، ولمدة ستة أشهر. مجموع المبلغ لايكفى علاج يوم واحد. استاء السفير وسخر من قرار الوزير، كما استاء عز الدين حمودة وقال إذا كانت البلد تعامل أعز أبنائها ممن ضحوا من أجلها بهذه الطريقة، فهل من الغريب أن يسعى المصرى للبحث عن أية جنسية أخرى، تحترم إنسانية الإنسان وحق الحياة والعلاج؟ لم يقصر السفير والمستشار الثقافى فى المحاربة من أجل علاجى على نفقة الدولة، فى نفس الوقت بدأت أرسل من المستشفى التى تبعد عن مدريد ٤٠ كيلو مترا استغاثات للصحف المصرية. نشروا استغاثتى مع صورتى مرات فى كل من الجمهورية والأخبار والأهرام «أحمد نوار يستغيث من مستشفى بمدريد» اتصل المستشار الثقافى بكليته (التى هى أيضا كليتى). وفى اجتماع مجلس الكلية اتخذ قرارا بضرورة قبول الدولة علاجى على نفقتها، وأرسلوا برقية بهذا لكل من وزير الحربية، ووزير الثقافة، ووزير التعليم. نجحت الحملة الإعلامية وموقف مجلس الكلية المشرِّف فى الحصول على قرار بعلاجى على نفقة الدولة.

لاشك أن الحملة السابقة تكشف عن وَجْهَىْ العملة: الوجه السلبى البائس للبيروقراطية والموظفين الذين يحترمون أى بند فى لوائحهم أكثر من حياة أى إنسان، وليمت المواطن ولتحيا اللائحة، والوجه الإيجابى المتمثل فى

دور السفير والمستشار الثقافى والصحف ومجلس الكلية، لكنى أعلن بحزن أننى كنت محظوظا جدا، أولا لوجودى فى إسبانيا فى ظل سفير يهتم، ومستشار ثقافى كله مروءة، وهو أيضا من نفس كليتى، لكن أى مواطن عادى فى ظروف عادية، لن يرى إلا الوجه السلبى للعملة.

كل ماسبق يجعلنى أذكركم بالأعمال الأدبية والسينمائية الأمريكية والأوروبية عن حروبهم، لا أطالب بمثلها فهذا أمر بعيد، فمن الواضح أن عبور القناة العبقرى والجبار أسهل منه، لكنى أذكركم فقط بأمرين: أولا: طبيعة موضوع هذه الأعمال، إنه الفرد المقاتل كإنسان له أسرة ومشكلات وأحلام ويصاب أيضا بأمراض تلقى أعظم عناية من قيادته ومن حكومته ثم من كل مواطنيه. وثانيا: ما تحكيه هذه الأعمال عن مؤسسات لا أول لها ولا آخر تحيط الفرد المقاتل أثناء القتال وبعد خروجه من المؤسسة العسكرية بكل عناية. لايتركونه أبدا كما نفعل يقبض الريح بيديه.

وبهذا أختم هذه الذكريات مؤكدا أن فترة تجنيدى فى الديفرسوار بما فيها من بؤس ونعيم، ستظل سطور نور وفخارا لى ماحييت بل ولأبنائى، وستظل أهم عناصر إلهامى الفنى، وحفظ الله مصر وشعبها العظيم وجيشها الباسل قادة وجنودا.



« ٢١ »

الشهادات

١- شهادة اللواء عصام حافظ..

التقيت باللواء عصام حافظ، والذى كان برتبة مقدم خلال حرب الاستنزاف، وقد ورد اسمه كثيرا فى النص الأوتوبيواجرافى لأحمد نوار باعتباره قائد الكتيبة ٣٦٠ مشاة التى التحق بها كجند قناص خلال فترة تجنيده. كان اللقاء (فى حضورى لتلقى الشهادة) حميما تظلله روح الصداقة بين اللواء عصام وأحمد نوار بجانب الروح المرحة للرجلين. كانت شهادة اللواء عصام تتسم بالطرافة لأنه جعلها تأخذ شكل التداعى التلقائى نتيجة الحوار الذى خلقه مع أحمد نوار.

يعود اللواء عصام إلى المقدم أركان حرب عصام خلال حرب الاستنزاف، يُذكّر نوار بأن تجنيده مثّل عنصرا داخل مرحلة التركيز على تجنيد المؤهلات، وهى مرحلة انتقال خطيرة للجيش المصرى، حيث فتحت الباب لظهور عناصر وطنية قادرة ومتحمسة بين الجنود. يقول اللواء الذى يتحدث باسم المقدم قائد الكتيبة ٣٦٠ مشاة: لقد برز فى كتيبتى من بين هذه العناصر المتميزة جندى اسمه أحمد نوار .. إنه نموذج للمقاتل المصرى الجديد المستعد للتضحية .. لقد احترف الرماية، وصار إنتاجه القتالى من إحداث خسائر للعدو يعادل إنتاج فرقة أو على الأقل لواء

كامل. لقد صار جنديا محترفا يعرف كيف يحدد موقع عدوه، ويصيبه فى مقتل.

ثم يحدثنا اللواء عن احترافه الأسرى للقوات المسلحة، فهو رابع ثلاثة لواءات، عملوا جميعا على الجبهة. تخرج اللواء عصام من الكلية الحربية عام ١٩٥١. يقول : عندما تخرجت لم يكن لدينا جيش، فالتسليح لايتجاوز البندقية الـ «ليه أنفيلد». مع الوقت عشت تطور التسليح، واحتراف العسكرية. أحمد نوار لم يولد مقاتلا مثلى، لكنه عند تجنيده احترف بسرعة فائقة العسكرية، وصار قدوة لكثير من زملائه. يتحدث اللواء عصام عن نماذج أخرى من جنود المؤهلات الذين دخلوا المطبخ فتحسنت أحواله نسبيا، برغم سوء ماالديهم من غذاء يعد للطبخ. يحدثنا عن جندى اسمه شعبان كان يحضر له وجباته بانتظام برغم أحلك لحظات الضرب. قلت له كثيرا : «لا أريد أن آكل ولا تعرض حياتك للخطر». كان رد الجندى الاستمرار في المهمة. تلك هى الروح الجديدة.

ثم يحدثنا عن موهبة نوار فى القنص. كان يستطيع التصويب والضرب فى ثانية واحدة أو أكثر بقليل لتتويج ساعات بل أيام وأسابيع من الكمون فى انتظار إنجاز تلك الثانية. إنه الصبر والجلد. ومع ذلك فلم يختف نوار الفنان، فقد رفع الذوق العام فى الكتيبة. وأثناء تجنيده أقام لنا معرضين. لقد استخدم الشظايا فى خلق أشكال فنية. لقد تحول المجندون الأميون إلى طلبة علم وفن، وقد رأوا كيف تتحول أداة الموت إلى أداة للحياة والجمال. رسم بانوراما لمواقع العدو. لقد أحسسنا عبر هذا الرسم بأن نوار قد أحضر لنا عدونا، ووضعه أمامنا على المائدة. ولعل تعبيرى هذا هو ترجمة لتعليق الخبراء الروس. ابتدع نوار فكرة عمل ميدالية لتكريم الجنود والضباط. لقد صممها أيضا. إنه حالة استثنائية كثيرة اللفتات الخطيرة. أتمنى على الله أن تكثر نوعية نوار، لأنها طريق مصر لتصير دولة كبرى.

ثم يتجاوز اللواء عصام أحمد نوار، ذاكرا كيف أن تغير نوعية الجنود غير سلوكه شخصيا وسلوك الضباط، مع أنه بعامة له أسلوبه فى القيادة، الذى يقوم على الحب والعطاء لضباطه وجنوده، حتى إنه كان يزوج أخت هذا لذاك، وأخت ذاك لهذا. استجاب الضباط والجنود لهذه الروح، فقد ترك الضابط فكرى شعبان عروسه بعد ٤ أيام من الزفاف، لأنه كان عليه الدور فى العبور.

لقد كان نوار جزءا من مناخ عام يتسم بالرغبة فى ممارسة المسئولية.. الرغبة فى الاقتحام والعبور. التشوق للثأر .. طلب فتح معدلات الذخيرة .. النّخوة .. الشموخ .. السعى لتجاوز النقص .. التسابق للعبور. مجموعات العبور أثبتت تفوق الجندى المصرى على جندى الشتات الإسرائيلى، فالآن القتال ليس سلاحاً لسلاح، وإنما هنا الحرب النفسية وحرب العقيدة. حاول الغرب واليهود اختراع عقيدة لإسرائيل، لكن حرب الاستنزاف كانت انتصارا مصريا كاملا فى الحرب النفسية والعقيدية. لقد نجحنا بفضل ظهور نموذج نوار وزملائه فى تحطيم روح الإسرائيلى المعنوية.

لقد استطاعت إسرائيل إيهامنا وإيهام العالم بأهمية الفرد الإسرائيلى. لقد شهدتُ قصة بحثهم المستحيل عن جثة طيار لم يجدوها، فجمعوا عظام بعض الحيوانات، وقدموها للحاخام لمباركتها. نحن لم نفهم حتى الآن أهمية إعطاء القيمة للفرد على المستوى المصرى والعربى. النموذج الوحيد هو حزب الله. إن حسن نصر الله رفض أخذ العزاء فى ابنه الشهيد حتى استعاد رفاته. لقد أصبح لزاما علينا إدخال روح حزب الله فى الجيوش العربية، وأن ينتهى عصر التجنيد ليحل محله عصر التطوع، الذى ظهر على صورته نوار وجيله، فقد تصرفوا طول الوقت كمتطوعين، بإحساس قوى بشرف الانتماء للقوات المسلحة. إن عقلية نوار كانت ومازالت تفتح آفاقا جديدة لرؤيتى كقائد عسكرى فهو كان دائم السعى إلى:

- ضرب العمق فى حرب الاستنزاف.

- ضرورة السير بسرعتين .. تنمية الواقع وخلق واقع جديد يضاف للواقع المتاح.

- إرسال بعثات للجنود.

- لابد من رؤية متجددة لعالم سريع التغير.

- دعوة الآخرين للعمل بالعمل نفسه.

- التفوق فى مجال التخصص دون حدود للتفوق، فنوار يفوز بالمركز الأول كقناص على مستوى الجيش الثانى ضباطا وجنودا.

- التركيز وخلق حوارات مستمرة حول تحسين المطبخ.

- زمالة السلاح صداقة عميقة، وتضحية متبادلة، فقد أصيب الملازم فؤاد مراد، وانتظر الإسعاف انتهاء الضرب، فحمله نوار بنفسه إلى المستشفى.

- الدعوة للتضحية بالسبق إليها.

- تطوير حفرة الكمون بالتشاور مع القائد.

يواصل اللواء عصام: «إن هذه التفاصيل تكشف عن نمو عقيدة جديدة، دفعت العقول للعمل والإبداع، ونموذج نوار ولَّد مئات النماذج من هذا النوع، وكان السبيل لنشر تلك العدوى هو الحب والصداقة» يلتفت اللواء عصام لنوار: أليس كذلك؟

فيحكى نوار ماحكاه فى النص عن استمرار علاقته بفصيلته وكتيبته بعد ترك الجيش وحتى الآن.

يقول اللواء عصام: «والدليل وجودى معك فى مكتبك الآن». ثم يحكى أن مايقوله عن نوار يبدو مبالغا فيه، لكنها الحقيقة الكاملة لهذه الشخصية الودودة، فعلاقتى بها على عمقها لم يكن مخططا لها، بل بدأت عشوائية، فى إطار حبى لجنودى، فلم أكن أحتمل إصابة أحدهم أو موته. لقد كنت أحافظ بصراحة على كل فرد، خلال ذلك رأيت نوارا مثل البصمة، مع وجود صور كثيرة متميزة تشبه الأفلام مثل صورة أربعة أفراد على مدفع، والخامس يتلو عليهم ما يتيسر من مصحف فى يده، فتميز نوار خاص لأنه تميز بين متميزين.

ويستفز نوار لحكاية قيادته لفصيلته فى حالة غياب قائدها الملازم حامد عبد الرحمن، وتعرضه للنيران والنابالم طوال الضرب للاطمئنان على أفراد الفصيلة، وكيف أن تصرفه كقائد ملىء بالمسئولية مما رفع الروح المعنوية لجنوده. أيضا يستفزه لحكاية خروج القائد المقدم أركان حرب عصام أثناء الضرب وكان معه نوار وزحفا معا نحو الملجأ، حيث أمسك نوار بقدم المقدم يقوده فى الزحف نحو ملجأ قائد الكتيبة الذى هو الآن اللواء عصام ويقوم اللواء عصام بتذكرة نوار بمناورة ترعة الإسماعيلية وعبورها مشيا على الطين تحت الماء، وبمرات عبوره .. مما ورد فى نص الكتاب بالتفصيل.

وينهى اللواء عصام بسعادته بتلك الأيام، وكيف ساعده على تجاوز صعوبة موقع الديفرسوار وجود أخ له قائد لكتيبة إنشاءات، لكن يبدى أسفه متمثلا بما قاله محمد حسنين هيكل عن عدم الاستغلال السياسى لحروبنا.. فمثلا حرب ٥٦، برغم أن الجيش لم يكن قد اكتمل تشكيله، وقامت الحرب.. فقد تم إنجاز كبير .. حتى أن أنتونى ناتنج فى كتابه رأى أن تاريخ إنجلترا ينقسم إلى ماقبل ٥٦ ومابعد ٥٦. ونحن لم نترجم حرب

الاستنزاف وحرب أكتوبر إلى حركة سياسية .. إن هذين الحربين كانتا مدرستين لتربية الشجاعات وعقائد القتال .. وكلمة فوكر مهمة : «لايعلم الحرب إلا الحرب ... ولعل أعظم حرب علمتنا الحرب هى حرب الاستنزاف .. بالفعل لم نترجم هذه الحرب إلى حركة سياسية .. على الأقل ظهور قيمة الفرد الهائلة فى العمل الجماعى والاجتماعى، أين هى؟ ألم يكن نوار فردا (مجرد جندى مجند) قد أفاد الجيش كثيرا على مستوى الجنود والضباط؟ ألم يكن أحمد نوار مثل الوباء الجميل فى قواتنا المسلحة؟ لماذا لانعلى من قيمة الفرد. لقد صرفوا مبالغ هائلة للتقليل من قيمة الفرد الهندى لدرجة أن قائد العربة الكارّو المصرى عندما يريد أن ينفى عن نفسه الدونية الشديدة يقول : «أنا موش هندى» .. هذا مايحدث داخل الوطن العربى بما فيه مصر .. للأسف لم ننشر عدوى ارتفاع قيمة الفرد فى حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر إلى المجتمع. مازال الفرد المصرى يحمل الصورة المشوهة للفرد الهندى.

لقد كانت حرب الاستنزاف بداية حقيقية للحداثة، فهل ندرسها، ونبحث عن روحها، ونبثها فى المجتمع حتى ننطلق انطلاقة الجيش المصرى من هذه الحرب إلى صنع معجزة ٦ أكتوبر؟

٢- شهادة اللواء عبد المنعم خليل:

قمت مع الدكتور أحمد نوار بزيارته فى شقته الجميلة والمتواضعة. استقبل أحمد نوار باندهاش، ومحاولة للتعرف، ثم التعرف ثم الأحضان البديعة من أب طيب جليل لابنه الغائب منذ ٣٠ سنة. هذا سمح لنوار تقديمى له. سلم علىَّ بتهذيب شديد وود إنسانى واضح مطلقا على لقب «أنت أستاذنا»، روح رائعة لقائد عظيم يحس بمرارة جميلة فاهمة لإهماله

بسم الله الرحمن الرحيم

الوحده ٩٤٦٤

الى الرقيب موصلات طبيا احمد محمد اسماعيل نوار

اشكركم باسمى شخصيا وباسم ضباط وصف وجنود الوحده على الفتره التى قضيتموها ضمن رجالها واتصفتم فيها بمثل اعلى فى الخلق والرجوله والقتال وكنتم شر شرفا للجنديه المصريه والعربيه بما تميزتم به من مثابره فى العمل وامانه فى الاداء ووطنيه صادقه وروحا عاليه وهمه لا تعرف الكلل ، ولنذكر جميعا على الدوام اياما قاسيه عشناها كانت حلوه لانها فى سبيل الحق وفى سبيل العلا وفى سبيل امنا جميعا مصر

نرجو جميعا لك التوفيق فى عملك الجديد فى خدمة امتنا العربيه وفى خدمة جيل جديد جيل النصر باذن الله

مقدم اركان حرب
عصام حافظ حلمى
قائد الوحده

وثيقة من المقدم عصام حافظ حلمى قائد الوحدة
للمقاتل القناص أحمد نوار.

بشكل منقطع النظير من الجميع ماعدا الرئيس حسنى مبارك الذى التقى به صدفة مرتين، ففوجئ بمعرفته له ومعاملته معاملة خاصة تنطلق من موقف الضابط الشاب المخلص لقائد قديم، وزميل سلاح يعرف قدره. هذه روح حسنى مبارك الطيبة المبادرة بالحب والتقدير لمن خدموا مصر وجيشها.

اللواء عبد المنعم خليل تقريبا خاض كل حروب مصر منذ الحرب العالم الثانية حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣، حيث عاد قائدا للجيش الثانى عند وقو




اللواء متقاعد عبدالمنعم خليل والمقاتل أحمد نوار والمحرر د. سليمان العطار فى منزل اللواء

الثغرة بعد أن كان من قبل قائدا لهذا الجيش خلال حرب الاستنزاف. لقد قاد تشكيلا ميدانيا فى حرب اليمن ثم القوة المنفصلة فى شرم الشيخ يونيو ١٩٦٧، ثم الجيش الثانى الميدانى فى حرب الاستنزاف، ثم قاد نفس الجيش عام ١٩٧٣ بعد الثغرة ليدافع عن الإسماعيلية بتوفيق دفاعا مستميتا. من أبرز معاركه المظفرة ليضىء زمنا أسود بعد ١٩٦٧، قيادته المنتصرة فى معركة رأس العش.

يبدأ اللواء عبد المنعم خليل بتقديم شهادته عن استراتيجية حرب الاستنزاف: كنا نخاف اليهود والمطلوب نقل جدار الخوف إلى اليهود. وبالفعل ملأت حرب الاستنزاف اليهود بالخوف، وجردت الجيش المصرى من أى خوف منهم. لقد صار الإسرائيليون عملاقا شديد التسليح، قليل الحيلة أمام المصريين. لقد بدأت حرب الاستنزاف عام ٦٩ حتى أواخر ١٩٧٠، وخلالها كنت قائد الجيش الثانى.

ثم ذكر اللواء عبد المنعم أنه تذكر دائما أحمد نوار دون أن يتذكر شكله. وقد تذكرت أعماله لأن جمال الغيطانى كتب مقالا عنه، من ثمَّ تذكرت وسعدت، لما أحمله من أشواق للجيش الثانى، فهم أولادى وأكثر من أولادى، فخلال قيادتى لهذا الجيش كنت أعرف عنهم أكثر مما أعرف عن ولدين لى

فى كلية الطب. والآن أحب أن أذكر أن أحمد نوار عندما طلب مقابلتى منذ ٧٢ ساعة، شغلت نفسى بهذا اللقاء واليوم كنت عند طبيب الأسنان، وكنت أسأل نفسى ماذا سأقول له؟

عموما أحب أن أذكر أن هناك قناصة كانوا فى مواقع متعددة خلال حرب الاستنزاف، والوحيد الذى ضرب رقما قياسيا كان أحمد نوار، ربما لعدة أسباب منها أن القناصة العاديين (لم أكن أعرف قط أن أحمد نوار فنان) كانوا عاجزين بنسبة عالية عن تحديد الأهداف، فأثار دهشتى كثرة نشاط القنص لأحمد نوار، ورأيت فيه قناصا غير عادى، ومقاتلا جيدا، فأرسلت إليه التحايا، ثم الهدايا الرمزية جدا. أيضا أرجعت كثرة إنتاجه إلى ركوب موقع الديفرسوار للموقع الإسرائيلى المواجه، مع وجود غابات تعين على الاختباء والمواجهة والمفاجأة، فوق ذلك ظننت أن ظهور المؤهلات العليا يحدث بالفعل تحولات هائلة فى قدرات الجنود، وأخيرا عند علمى بأنه فنان ظهر لى تفسير آخر لتفوقه.

ولأن القنص عمل فردى يعتمد على قوة الملاحظة والتمويه والخداع، وسرعة اتخاذ القرار، والقدرة على تنفيذه بسرعة فائقة، دون اضطراب، فقد أبرز دور نوار أهمية الفرد وإطلاق طاقاته وإبداعاته، الأمر الذى نجهله، وأبرزته حرب الاستنزاف عبر نموذج نوار الذى عم وانتشر بسرعة. وأضرب لك مثلا بحرب اليمن، فقد كنا ندفن شهداءنا دون اعتبار لمدافنهم بعد ذلك. الآن تعلمنا من إسرائيل الكثير. كان يوجد لنا فى اليمن وفلسطين فى كل موقع مدافن لشهداء مصريين. أخيرا تم عمل مقابر لهم فى اليمن، وتنامى الاهتمام بها. إنى أذكر أنه بعد انتهاء حرب أكتوبر، جاء وفد من الكونجرس الأمريكى، وحملته إلى القنطرة حيث توجد مشكلة للقتلى الإسرائيليين، فقد قتل عدد طاقم دبابة مع عدد من الجنود المصريين،

ودفنوا فى نفس المقبرة، وقمنا بعزف نوبة الرجوع.. وتمت تحية الطرفين. وميزة إسرائيل أنها تعلن عن قتلاها، وتهتم بمصيرهم، وتمارس رد فعل عنيف بعد قتلهم، أما نحن فنظن أن ذلك سر حربى، فلا نعلن، ويذهبون فى الظلام إلى الأبد. إننا لانهتم بالفرد أو الإنسان كإنسان ومواطن، وجندى يضع أغلى ماعنده (حياته) تحت أمر الوطن.

تلك هى قصة نوار فرد أيقظ، ومازال يوقظ بمذكراته تلك روح الفردية، وأهمية الفرد لصنع عمل جماعى. إن عدم إعطاء أهمية للفرد فى ثقافتنا يجهض عمل الفرد، ويبدد دور الجماعة. وحرب الاستنزاف ثم حرب أكتوبر أعلت دور الفرد، ثم ماذا؟ لم نحاول أن نحول هذه الروح الفردية الخالدة من أجل الجماعة والمجتمع إلى روح تسرى فى الأمة. لقد حاولت جهدى كقائد أن أفعل ما أعتقده، وأوليت الفرد أعلى درجة من الاهتمام ضد تيار قوى لايوافقنى. إننى الآن فى بيتى منسى، لأن قيمتى لم تكن تنبع بما حبانى الله من مواهب وقدرات وتفان فى خدمة الوطن، وإنما من منصب زائل مارسته بنجاح لأننى فرد ناجح ومخلص لله والوطن.

سعدتُ بعد أداء هذه الشهادة بسماع قصيدة شعر (تقريبا) كتبها اللواء عبد المنعم، حبا فى نوار. ودعنا الرجل الطيب النبيل المحب لمصر، بعد أن أهدانا كتابه المتميز عن «حروب مصر المعاصرة»، وهو عبارة عن مذكراته للحروب التى خاضها، إنها حروب مصر جميعا.

٣- شهادة العميد حامد عبد الرحمن

لم يكن أول لقاء بينى وبين أحمد نوار لقاء شخصيا فقد عرفته من خلال ماسمعته عنه وعن مشروع تخرجه والذى كان يحمل عنوان يوم الحساب والذى يصف فيه العذاب والأهوال. وقد كان من الطبيعى أن يتقدم

كل مجند مستجد بتعريف نفسه ومؤهله الى أن جاء اليوم وبالصدفه تقدم أحمد نوار لتقديم نفسه على أنه أحمد نوار الحاصل على فرقة قناصة وحينها سألته هل أنت أحمد نوار طالب الفنون الجميلة ؟ فأجاب نعم .. وهل أنت الذى قمت بعمل مشروع يوم الحساب؟ فقال نعم .. فدهش أحمد نوار لسابق معرفتى به.

وكان معروفا عن أحمد نوار التواضع الشديد والتعاون وحبه للمشاركة مع زملائه فى أى نشاط. وقد قام أحمد نوار مع بعض زملائه الحاصلين على شهادات عليا فى الإشراف على مشروع محو الأمية. وقد انتظم أحمد نوار فى السرية وترقى من رتبة عريف إلى شاويش ثم انتقلنا من الموقع الذى كنا فيه الى موقع آخر يعرف بموقع الضغط وهو موقع قريب من العدو. ومن المفارقات الضاحكة أن أحمد كان يتميز بالطول فعند النوم بالملاجئ كان ينام ورأسه بالخارج وقدمه بالداخل على عكس كل زملائه وهذا كان يعرضه للخطر إذا ما ألقى العدو قنبلة، فقد كان من الممكن أن تطيح برأسه وفى إحدى طلعات العدو علينا إذا بقنبلة تسقط بالقرب من أحمد حتى أننا ظننا أنه قد لقى حتفه لكن والحمد لله كان سليما ولم يصب إلا بخدوش بسيطة.

وكان معروفا عن أحمد نوار أنه لا يعرف السباحة وفى أحد الأيام أعلن قائد اللواء عن جائزة لمن يستطيع عبور البلاح ولا يعرف العوم وهى عبارة عن خمس برتقالات، فقام أحمد نوار بإلقاء نفسه فى الماء وأخذنا نشجع أحمد على العوم حتى يستطيع أن يحصل على الجائزة ونجح فعلا في العبور فقد كان معروفا عن نوار الالتزام والإقدام والشجاعة والجرأة وهى صفات كفيلة أن تجعل منه جنديا متميزا. وفى أحد الأيام أمر قائد اللواء الجنود بإلقاء أنفسهم بالماء ونجح هذه المرة أيضا. وبعد ذلك انتقلنا إلى

موقع الديفرسوار وهو أقرب موقع للعدو.. وقد تعاون أحمد مع ثلاثة من القناصة فى عملية جس نبض للعدو، وقد كان يتصور الناس أننا لانرى العدو وبعد ذلك توالت العمليات والهجمات على العدو حتى وصل اسم أحمد نوار والقناصة زملاءه فى الفرقة إلى قائد الجيش فقام بمنحهم شهادات تقدير.

وفى أحد الأيام قام العدو بهجوم جوى على موقع الديفرسوار وكان أول مرة يستخدم فيها النابالم، وعلى الرغم من أن الجنود كانوا على درجة عالية من الكفاءة فى التدريب على استخدام النابالم إلا أن التعامل مع الذخيرة الحية كان لقاء حقيقيا مع الموت، لكن كان لتوجيهات أحمد نوار كشاويش فصيلة الأثر فى تقليل خسائر الفصيلة إلى نسبة لم تتعدَّ من ٢ إلى ٣ برغم قوة الضرب. أخيراً، أحمد نوار كان يستعان به كقائد فصيلة نائبا عن أحد ضباط الجيش. وهذا كنوع من الثقة فيه وفى توجيهاته.

ومن الأشياء التى أذكرها أيضا أنه فى أحد الأيام قام العدو بطلعة جوية كانت قريبة من الأرض فقمنا بعمل سد نارى وهو عبارة عن استخدام كل الأسلحة وتوجيهها نحو الطائرة فتجبرها على الارتفاع، وكلما بعدت بعد الهدف وقلت الخسائر.. وبعد الديفرسوار انتقل للاستطلاع .. ولايجب أن يفوتنى أن أذكر أننا كضباط قد سعدنا بانضمام أحمد نوار إلى اللواء الذى كنا فيه، فقد كان معروفا على مستوى كل فصيلة وكل كتيبة وكل سرية فمن الجميل حقا أن يذيع صيت جندى فى الجيش ويصل إلى كل قائد فى الجيش. وعندما سافر أحمد نوار استمرت علاقتنا وكأنه مازال معنا ولم يفارقنا.

وأستطيع أن أقول إن أول بانوراما كانت من صنع أحمد نوار فقام برسم بدقة شديدة يصور منطقة الديفرسوار والتى كانت عبارة عن نقطتين قويتين تحيط بهما الألغام كان يعجب بالرسم كل من يدخل إلى نقطة الملاحظة. كل هذا كان خلال حرب الاستنزاف.

والمواقف التى لايجب أن يفوتنى ذكرها أنه وقبل وقف إطلاق النار صدر تصديق من القوات المسلحة بأنها تريد أن تعرف رد فعل النقط القوية لدى العدو إذا ما أطلق عليها النار، وفعلا عبرت أنا ونوار واثنان آخران، ونحن نخفى على القادة أننى ونوار لانجيد السباحة. كنا متأكدين أننا هالكون لامحالة بيد العدو أو بمدافع قواتنا عند إطلاق النار عليهم، وهذه الروح روح الفدائية هى الروح التى كانت تسود الجيش المصرى ولا أكون مجاملاً إذا قلت إنه يمكن اعتبار أحمد نوار قائدا من قواد الجيش لما يتميز به من فدائية وإقدام وحسن القرار وكفاءة فى استخدام السلاح، فقد كانت كل طلقة بإسرائيلى.. وكانت هناك مناوشات كثيرة مع العدو والتى كانت بداية حرب الاستنزاف والتى أعطتها مذاقاً خاصاً وأستطيع أن أقول إنه لولا حرب الاستنزاف ماكان هناك حرب أكتوبر.

نقطة الديفرسوار كانت مثل الغابة بها أشجار كثيرة وكثيفة فقد كانت عبارة عن محطة مائية، الخسائر بها قليلة. وكان من عادة القائد عصام قائد الكتيبة المرور على السرايا ليلا للاطمئنان وكنت أرافقه ومعنا أحمد نوار .. وفى إحدى الليالى وأثناء المرور إذا بالعدو يشن علينا إحدى هجماته بالقنابل ولم تكن هناك أى خنادق للاختفاء ولم يكن هناك إلا حافة (قَنايَةٌ). وكرد فعل طبيعى استلقينا على الأرض وكل منا يمسك بقدم الآخر وكنت حريصا على أن يظل أحمد بجانبى وفى كل مرة كانت تسقط الدانة كان كل منا يضغط على قدم الآخر فى سؤال هل هذه الدانة سقطت بجانبنا أم وراءنا أم ماذا؟ وهذه من المواقف التى لا أنساها حتى الآن. وككلمة حق فإن نوار كان لماحاً بدرجة كبيرة فلم أكن فى حاجة أن أعيد عليه أمرا أو أتمم عليه فى تنفيذه، وهذا ما جعلنى أضمه إلى الجماعة التى تعبر دون صعوبة باللغة.

٤ ـ شهادة العميد فكرى شعبان

بداية معرفتى بأحمد نوار كانت فى الديفرسوار. وكان من ضمن أول مجموعة انضمت إلى قوات الاستطلاع وكان معروفا عنه الشجاعة والرجولة ـ تستطيع أن تقول الرجولة الزائدة على الحد ـ وكان قد انضم إلى السرية الثانية. كنت أنا قائد جماعة الاستطلاع برتبة ملازم أول عندما انضم نوار إلينا بالديفرسوار مع بعض من أفراد الجيش وقد كان تخصصه قناصا. كنا على خط النار يفصلنا عن خط القناة براسين خشب وأحجار كأحجار الهرم بين الحجر والحجر فجوة. كان قناصا بمعنى الكلمة تستطيع أن تقول إنه قد أخذها حرفة. وقد أخذت أراقبه من بعيد لبعيد وقد حاولت ضمه إلى الجماعة «جماعة الاستطلاع» وكان يهمنى أن تكون الجماعة على أعلى مستوى من الكفاءة والتميز. وبعد ذلك بدأنا تدريب الجماعة على كيفية التصرف فى حالة أى هجوم كيماوى وكيفية العبور وبدأنا نأخذ أماكن للاستطلاع عبارة عن الأشجار العالية وغيرها لتمكننا من مراقبة العدو، وكان يهمنا فى هذه المرحلة تدريب الجنود على العبور والدخول إلى العمق عمق سيناء فبدأ ذلك بعمل «معديات» خشبية بدائية عبارة عن حبل يربط به براميل خشبية ويقوم أحد الجنود بالعوم إلى الضفة الأخرى وربطه ونستخدمه فى العبور، ولم نكن نعتمد على جماعة الاستطلاع فقط فبدأنا نأخذ جماعة من كل سرية لتدريبها على الهجوم استعدادا لهذا اليوم العظيم.

وكانت الجماعة تتكون من ٦ إلى ٧ أفراد من جنود الاستطلاع وبعض أفراد من السريات الأخرى، والذين كانوا لايعرفون سيناء ولم يذهبوا إليها من قبل. كانت مهمة هذه الجماعة العبور إلى الضفة الأخرى والدخول إلى عمق سيناء بحوالى ٣ كيلومترات. وكان أحمد نوار من ضمن القناصة، وكان

يذهب ويجىء حتى إذا ماظهرت رأس أى يهودى يقوم بقتله. هذه المهمة تحتاج إلى الصبر والشجاعة والفدائية. ومن المواقف التى لا أنساها حتى الآن أنه فى أحد الأيام وفى أحد استطلاعات الجماعة كانت لدى الجنود رغبة فى التوغل فى سيناء كثيرا، وبدأنا نسمع أصواتا تشبه أصوات الدبابات ولم نتمكن من تحديد موقعها بالضبط ولكن بعد فترة قصيرة بدأت هذه الأصوات فى الارتفاع معلنة عن اقترابها وأحسسنا أن العدو قريب منا فبدأنا فى التراجع مسرعين وكنا قد انحرفنا عن نقطة الانطلاق الأصلية حتى وصلنا إلى القناة وركبنا مركبا كنا قد أسميناها «رع» لأنها مصنوعة من خشب البردى ولكن آخر جندى والذى كان مكلفا بفك الحبل ونتيجة للسرعة فقد قفز قفزة خاطئة أدت إلى انقلاب المركب ولأننا كنا نرتدى «جاكتة النجاة» والتى تجعل من يلبسها يطفو فوق الماء وأى ضغط عليها يعوق الحركة ويجعل صاحبها تحت الماء ونتيجة لهذا كان فوقنا من أحمال الخشب مِمّا صعّب علينا العوم وكدنا نغرق لولا أن أول جندى والذى كان فى المقدمة استطاع أن يرفع الخشب من فوقنا واستطعنا السباحة بسرعة إلى الضفة الغربية بعد أن كدنا نفارق الحياة. فاتنى أن أقول إن نوار كان يعبر معنا وهو يحمل الـ RBG وهو سلاح قذف الدبابات .. وأذكر أنه أيضا بعد أن وصلنا إلى الضفة الغربية اكتشفنا سقوط بندقيتين فى القناة وأعلن قائد الكتيبة عن جائزة أسبوع إجازة لمن يستطيع استخراج هاتين البندقيتين من الماء ونزل اثنين من أفراد الجماعة إلى الماء، وكان عليهم أن يخرجوا وينزلوا إلى الماء أكثر من مرة لأعماق كبيرة حتى استطاعا أن يجدا البندقيتين.

الجمهورية العربية المتحدة — وزارة الحربية

U.A.R — M.W.

MILITERY IDENTIFICATION تحقيق شخصية عسكرية

THE GENEV CONVENTION 1949 DOS'T REQUIRE FROM POW TO TELL MORE THAN WHAT IS SHOWN BELOW.

SERGEANT NO:5305913

NAME: AHMED MOHAMED NAWAR

BIRTHDAY: 3-6-1945

BLOOD GROUP: O

تعليمـــــات

تنص اتفاقية جنيف فيما يختص بمعاملة أسرى الحرب على :

١ ـ الاسير غير مجبر الا على ذكر اسمه ورتبته وتاريخ ميلادة بند ١٧
٢ ـ الضباط معافون من العمل والصف ضباط غير مكلفون الا باعمال المراقبة ، اما الجنود فلا يجوز تكليفهم باعمال لها صبغة او غرض حربى بند ٤٩ ـ وتراعى حقوق الانسان وشرفه بند ١٤
٣ ـ لا يجوز توقيع عقوبات بدنية على الاسرى بنـــد ٨٧
٤ ـ يسمح للاسير بمباشرة واجباته الدينية بند ٣٤ ـ والشكوى لمندوبى الصليب الاحمر الدولى بند ٧٨ ـ والالعــــاب الرياضية بند ٣٨ ـ وارسال البرقيات واستلام البريد بنـــد ٧١

وثيقة تنص على اتفاقية جنيف فيما يختص بمعاملة أسرى الحرب.

الفهـــرس

إهـــداء ٥
تقـــديم ٧
تقديم بقلم المحرر ٩
مـولد البطل ١٣
القـــدس ٢١
٥ يونيو ١٩٦٧ .... ٢٥
المفاجأة! ٢٩
أيام الهايكستيب ٣٣
الخـيـال ٣٧
الجـبـهـة ٤٣
أول القنص قطر ٤٩
القنص الثانى ٥٧
الصـيـد الثـالث ٦٣
لعبة القط والفأر ٦٩

أزهار الملل ٧٥

مسابقة قنص ٨٥

القنص والتطعيم ٩٣

إفطار القنص ١٠١

رمضان وذكريات أخرى ١٠٩

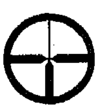
العبور ١١٥

بروفات مبكرة لثغرة ١٩٧٣ .... ١٢٥

وكانت الثغرة ١٣٣

خاتمة: ألف ليلة وليلة ١٣٩

الشهادات ١٤٧



رقم الإيداع ١٦٦٦٧ / ٢٠٠١
الترقيم الدولي 3 - 0755 - 09 - 977



مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)







هذا عمل فريد من نوعه، إنه أول سيرة ذاتية يكتبها جندى محارب على مستوى العالم العربى، فالمعتاد أن يكتب سيرته مع الحرب كبار القادة ومشاهيرهم. من هنا تأتى فرادة وتميز هذه السيرة الذاتية لحياة الفنان أحمد نوار خلال عامين من التجنيد يمتدان من عام ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٠. وقعت فيهما واحدة من أنبل الحروب المصرية: حرب الاستنزاف.

السيرة تتشكل من ٢٠ فصلا، وتختتم بالفصل ٢١، ويتضمن شهادات كل من اللواء عبد المنعم خليل، واللواء عصام حافظ، وهما من أعظم القواد الذين أنجبهم أعرق جيش فى العالم: الجيش المصرى، ثم يليهما شهادة تلميذين متميزين لهما، وقائدين أيضا شجاعين هما العميد حامد عبد الرحمن، والعميد فكرى شعبان.

ونأمل أن يستمتع القارئ بهذه السطور التى ترسم أياما مصرية مجيدة، وتستحق منا الانتباه لها، والاستفادة من روحها ودروس تجربتها.

دار الشروق